المكتبة الاهلية في بيروت

محمد والمرأة

ابن خلدون في المدرسة العادلية

محاكمة وزيرين في امرية خطيرين

محاضرات

الشيخ عبد القادر المغربي

١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م

مطابع قوزما

محمد والمرأة

محاكمة وزيرين في امرين خطيرين

ابن خلدون في المدرسة العادلية

محاضرات

الشيخ عبد القادر المغربي

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

— مطابع قوزما سنة ١٩٢٨ —

محمد والمرأة

مواضيع الخطابة كثيرة والحفلات الخطابية ايضاً كثيرة، ولكن الحفلة الممتازة بسيداتها وساداتها ينبغي ان تكون ممتازة بموضوعها ولطيف اشاراتها.

فمن لي ياسادتي بموضوع ممتاز كامتياز حفلتكم هذه؟ حقاً ان مراعاة التناسب بين الموضوع والحفلة هو موضع الصعوبة في الامر.

فسرت يوما كلمة النساء امام فتاة متعلمة وقلت ان معناها الطرد والابعاد والتأخير ومنه سميت «المنسأة» وهي العصا ـ منسأة ـ لان الراعي يطرد بها غنمه. فاحتدمت الفتاة غيظاً وقالت: اذن سمى العرب النساء نساء لأنهن مبعدات مطرودات؟!!

فعجبت من استنتاجها، وتعوذت بالله من لجاجها، واجبتها على اعتراضها بما ارضاها في الجملة.

ولما دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة رأيت الفتاة المذكورة يوماً مهتمة بمطالعة كتاب.

فسألتها: ما هذا الكتاب؟

قالت: الزبيدي.

والزبيدي ايها السادة كتاب ديني اختصر فيه مؤلفه احاديث البخاري كلها.

فشجعتها على قراءته واثنيت عليها لاختيارها هذا الكتاب للمطالعة، بدل تلك الكتب التي تولع بها الفتيات عادة. اكملت الفتاة مطالعة الزبيدي ولم تكد تلقيه من يدها حتى التفتت الى من حولها وقالت:

اني لم اجد في جميع الاحاديث التي قرأتها في هذا الكتاب ما يشعر بان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتقر المرأة؛ بل على العكس رأيته يكرمها ويسوي بينها وبين الرجال في التكاليف والاحكام.

فمن اين جاءت تهمة شارعنا الاسلامي بأنه يحقر المرأة او يعلم بالحط من كرامتها؟!!

فلا اكتمكم ايها السادة ان سروري باستنتاجها هذه المرة انساني اغتمامي باستنتاجها في المرة الاولى.

وسررت بالأكثر مذ ظفرت بموضوع الخطاب الذي ارغبه لحفلتكم هذه. وناديت: وجدته، وجدته! كما نادى ارخميدس: وجدتها، وجدتها.

نعم، وجدت الموضوع ايها السادة، لكنني لم اجد الوقت اللازم لتوفيته حقه. لأن جميعة التهذيب — والشكر لهـا على كل حال — لم تعطني وقتاً للكلام في حفلة. وانما اعطتني وقتا للمخابرة في تلفون. فاعذروني اذا اسرعت او اذا اختصرت.

* * *

كان العرب بمقتضى طبيعة بــلادهم وتركيب امزجتهم يرون في المرأة هناءهم وراحة نفوسهم، فاحبوها وكادوا يعبدونهـا. كما انهم بمقتضى طبيعة اجتماعهم ونظام الغارات والسبي المتعارف بينهم كانوا يرون في المرأة سببـاً

لمذلتهم ولحوق العار بهم . فتشاءموا بها الى حد ان وأدوها . فكان العرب بين جاذبين : جاذب من طبيعة اقليمهم وامزجتهم يجذبهم الى المرأة ، وجاذب من نظام اجتماعهم وحروبهم يبعدهم عنها .

وقد ولد محمد (ص) في جزيرة العرب واهلها على ما وصفنا من الحالتين : فأقر الحالة الاولى : حالة حب المرأة وباركها هاتفا : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

وقبح الحالة الثانية — حالة التشاؤم بالمرأة فرفع قدرها وارجعها الى عرش سيادتها ونادى قائلا : « المرأة سيدة بيتها »

« المراة راعية في بيت زوجها وهي المسؤولة عن رعيتها » . فالغرض من نبوة محمد اذن ليس توحيد الله فقط بل والتبشير بالمرأة والاحتفال بارجاعها الى عرش سيادتها .

قال عمر بن الخطاب : « والله كنا في الجاهلية ما نعد النساء شيئا . حتى انزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . »

ومن تتبع سيرة النبي (ص) في ادوار حياته ادرك الاسباب التي جعلت نفسه الشريفة مستعدة لقبول هذا الوحي النسائي .

مات ابوه ثم امه وعمره بضع سنوات . فتولت حضانته فتاة حبشية اسمها (بركة) وتكنى « ام أيمن » وقد عكفت هذه الفتاة على تربيته وخدمته حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره .

فكان قرير العين بما كان يراه في حاضنته هذه من العطف والعناية . وشعر بأول وظيفة من وظائف المرأة في هذا الوجود : المرأة من حيث هي امرأة ،

حتى ولو كانت حبشية ومملوكة ، ولم تنتم الى عرق في العرب ، او شرف في النسب .

ثم شاءت العناية الالهية ان تنقل محمداً (ص) الى العيش بقرب اشرف امرأة في قريش فتزوج السيدة « خديجة بنت خويلد » .

شيء جديد في حياة محمد : انتقل الى طور آخر من معرفة المرأة ،واختبار وظائفها . ولم يعد ذلك الشاب الذي تخدمه حاضنته متواضعة فيكرمها ؛ بل الشاب الذي تحبه امرأة شريفة و يحبها .

هو شاب في الخامسة والعشرين وهي كهلة في الاربعين ، كأن العناية الالهية رأت انه مازال في شبابه محتاجاً الى عطف امرأة ذات سن وتجربة وثروة فيسرت له الاقتران بخديجة .

مات زوجها الاول فخطبها اشراف قريش فامتنعت وفضلت الاستقلال بنفسها ، والعكوف على اعمال تجارتها . وكانت تبحث عن ثقة من الرجال تكل اليه اشغالها . فما لبثت ان اهتدت الى محمد . فلم تره اميناً على مالها فقط بل وعلى قلبها ايضا ، فأودعته ذلك جميعه

كل من رأى محمداً (ص) وسمع كلامه كان يشعر بأنه سيكون له شأن في نهضة العرب ، وانقاذهم من جاهليتهم ولم يكن هذا ليخفى على خديجة . فكانت تعتقد ان خطيبها سيكون من عظماء الرجال ، ومربي الأمم والاجيال ، فزادت ولوعا به وحرصا على محبته .

قال أنس : « كان النبي (ص) عند عمه ابي طالب ، فاستأذنه في ان يتوجه الى خطيبته خديجة ، فأذن له . وبعث في اثره جارية تسمى (نبعة) . وقال لها :

«انظري ما تقول خديجة لابن اخي محمد.»

قالت نبعة: «فرأيت عجباً: ما هو الا ان سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فأخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها. ثم قالت له: بأبي وامي، لا أفعل هذا الشيء (الذي نهيتني عنه). ولكنني ارجو ان تكون انت النبي الذي سيبعث. فأن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وادع الاله الذي يبعثك ان يبعثك لي.»

قالت نبعة: فأجابها محمد:

والله لئن كنت انا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أنساه ابداً. وان يكن غيري فأن الاله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك ابداً»

***

لم يكن محمد ذا حظ من مال ونشب. ولم تكن اسباب رغد العيش متوفرة لديه، وقد توفرت لديه الان مذ تزوج بخديجة.

فما هو صانع؟

ايتخذ من مال زوجته ونعمتها وسيلة الى اللهو والدعة والنعيم؟

كلا: وانما اتخذ محمد الشاب من مال زوجته وسيلة الى فراغ قلبه من همّ العائلة، كما اتخذ من حبها وطاعتها له وسيلة الى التفرغ لعبادة خالقه، والى القيام بالعمل العظيم الذي يشغل باله.

ها هو محمد قد اعتزل الناس، والتجأ الى غار في جبل حرا، يناجي ربه، ويسأله ان يهدي شعبه.

وها هي خديجة امراته تشجعه وتبث الثقة والصبر والثبات في نفسه.

ها هي تهيئ له الزاد ليتقوت به في اثناء عزلته الطويلة . ها هي مجدلية محمد في سفح الجبل مشرئبة الى الغار الذي اعتزل فيه زوجها ، وقلبها مفعم بالرجاء والايمان والثقة بالمستقبل .

وهكذا نرى النبوة ولدت على يد المرأة « خديجه » بينما لم يشهد ولادتها احد من الرجال . لا ابو بكر ولا عمر ، ولم يسمع بذكرها علي ولا معاوية .

ثم ماتت خديجة . فشاء ابو بكر اكبر صحابة محمد « ص » ان يتشرف بمصاهرته فزوجه ابنته (عائشة) . لم تكن عائشة زوجة فقط بل وتلميذة ايضاً . وهذا هو الطور الثالث من اطوار محمد مع المرأة : بركة الحبشية تسهر عليه في طفولته ، وخديجة الكبرى تحوطه وتشجعه في شبيبته ، وعائشة الصديقة تسره وتكون تلميذة له في كهولته .

اختبر محمد (ص) المرأة في جميع ادوار حياته وامتزجت عاطفته بعاطفتها طفلا وشابا وكهلا . وكان لها من التأثير في حياته ما جعله يرفع منزلتها ، ويعلن حريتها ، ويسوّي بينها وبين الرجال .

ومن العجب المصادفات ان ينعقد مجمع (ماكون) في زمن محمد اي في سنة (٥٨٦) للميلاد ويبحث في : هل المرأة انسان ؟

ثم قرر انها انسان لكنها انما خلقت لخدمة الرجل . ولم يكد يصدر قراره هذا في اوربا حتى نقضه محمد في الحجاز ورفع صوته قائلا :

« انما النساء شقائق الرجال » .

بل قال للرجال : الستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التي تحرصون عليها (هي تحت اقدام الامهات) وكل امراة أم ان لم يكن بالفعل فبالقوة .

ولم يقل احد في تكريم المراة مثل هذا القول الذي قاله محمد. واذا كان قوم يحسبون المرأة شيطاناً فان محمداً كان يراها تعوينة من الشيطان.

سأل فتى من صحابته وهو (معاذ بن جبل) :

ـــ الك زوجة يا معاذ ؟

ـــ كلا .

ـــ انت اذن من اخوان الشياطين . (يعني وكان الواجب عليك ان تتعوذ من الشياطين بامرأة تتزوجها) . وقد اراد محمد (ص) بتكريم المرأة ورفع شأنها في عيون الرجال على هذه الصورة افهامهم ان نهضته الجديدة انما تقوم على سواعد الجنسين معا : الرجال والنساء ، شــأن النهضات العالمية الكبرى . ولما رأى النساء العربيات هذه النهضة التي نهضها بهن محمد اغتبطن بها ، ونشطن الى الازدياد منها ؛ حتى انهن لما رأين انفسهن مغبونات في بعض حقوقهن عقدن اجتماعا منهن وقررن فيه ان يرفعن الى النبي (ص) مطالبهن فرفعنها بواسطة مندوب منهن واسم مندوبهن : (اسماء بنت يزيد الانصارية)

جاءت اسماء النبي وقالت له :

« اني رسول من ورائي من جماعة النساء وكلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي » .

ثم عرضت على النبي مطالب النساء اللواتي ارسلنها . فاجابها النبي عليها بما ارضاها ، واعلن سروره بحديثها وجرأتها ، والتفت الى من حوله من الصحابة وقال :

« هل سمعتم مقالة امرأة احسن سؤالا عن دينها من هذه المرأة ؟ »

وكفى بقوله هذا تنشيطا للمرأة وتنويها بقدرها . وكان النبي (ص) يحب

ان لا يستبد على المرأة في امر زواجها ، فهو يعطيها الحق في ان تتزوج من تختاره ، ويطيب لها العيش معه بشرط ان لا يحط هذا الزواج من كرامة عشيرتها .

هذه الفتاة (بريرة) كانت مملوكة للسيدة (عائشة) فاعتقتها . وكانت (اي بريرة) متزوجة برجل اسمه (مغيث) فلما ملكت حريتها ملكت حق الاختيار في ان تبقى زوجة لمغيث او لا .

ويظهر ان بريرة ما كانت في راحـــة من العيش مع (مغيث) فاعلنت انها لم تعد تريده زوجاً لها .

فصعب الامر على مغيث وكان يحبها حباً جماً . فاسترضاها فلم ترض .

ها هي بريرة تمشي في سكك المدينة ، ومغيث المسكين يمشي وراءهـــا وذموعه تتحدر على وجنتيه والناس ينظرون اليه ، وقد اخذتهم الشفقة عليه ; وبريرة لا ترق ولا ترحم .

ارحميه يابريرة . ارثي لحاله . اعطفي عليه . كلا ! لا اريده .

اخبروا النبي (ص) بخبر بريرة ومغيث . فدعاها اليه ، وكلمها بشأنه فقالت له : اتأمرني امراً يا رسول الله ؟

— لا ، وانما انا شفيع .

— لا حاجة لي فيه .

فلم يعارضها النبي ولم يلمها في استعمال حريتها مع انها عتيقة زوجته ، وانما التفت الى عمه العباس وقال له :

(يا عباس ، الا تعجب من حب مغيث لبريرة ، ومن بغض بريرة لمغيث ؟)

وكما كان النبي (ص) يعترف للمراة بحقها في الاستقلال بمصالحها الخاصة كان يرى لها الحق ايضا في ان تشارك الرجال في خدمة المصالح العامة .

واهم تلك المصالح في ذلك العهد مسألة تأييد الدعوة الاسلامية ومقاومة الذين يعارضونها : فكان للمرأة المساعي الحسنة في هذا السبيل وقد توفرت طائفة من نساء الصحابة على مرافقة الجيش وخدمة المحاربين .

قالت ام عطية : «كنت اصنع للمحاربين طعامهم واحفظ لهم خيامهم واداوي جرحاهم واقوم على مرضاهم . »

وقالت ام سنان : لما اراد النبي الذهاب الى خيبر جئته فقلت له :

— « اخرج معك في سفرك هذا : أخرز السقاء ، واداوي المريض والجريح واحافظ على الرجال ؟

— « اخرجي على بركة الله : فان لك صواحب سألنني الخروج معي فاذنت لهن . فكوني مع زوجتي ام سلمة . » اما ام كبشة فلما استأذنته في الخروج معه قال لها — لا . فقالت له :

— اني اداوي الجريح واقوم على المريض .

— اجلسي لا يتحدث الناس ان محمداً يغزو بامرأة . فانظروا ايها السادة كيف ان النبي (ص) علل عدم اخذها معه بالخوف ان يشيع بين القبائل ان محمداً لا رجال عنده ولا ابطال ، فهو يحارب بربات الحجال . ولم يقل لها اجلسي فليس الخروج مع الجنود من شأنك .

وقال أنس : انى في وقعة أحد رأيت زوجة النبي عائشة ومعها امي (ام سليم) مشمرتين ارى خلاخيلهما وهما تقفزان قفزاً ، وعلى ظهورهما قرب الماء

تفرغانها في افواه العطاش ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها في افواههم . وهنا امرأة اخرى هي (رفيدة) الاسلمية . ما كانت ترافق الجيش وانما نصبت خيمة في مسجد النبي وجعلت تداوي فيها الجرحى وتعالج المرضى.

ولما جرح سيد الانصار (سعد بن معاذ) في وقعة الخندق قال لهم النبي (ص) : اجعلوه في خيمة رفيدة .

هذه وظيفة رفيدة في زمن الحرب . اما في زمن السلم فكانت تأتي بالعجزة والبائسين الى خيمتها فتخدمهم وتخفف اتعابهم ، فنعمت الخيمة خيمة (رفيدة) : كانت مستشفى عسكرياً وقت الحرب ، وملجأ للعجزة ايام السلم .

وجاء رجل من المشركين المحاربين الى السيدة (ام هانئ) واستجار بها فاجارته . فعارضها بعض الصحابة واراد ان لا يعتبر جوارها فاغتاظت منه وشكته الى النبي فقال لها : « قد اجرنا من أجرت يا أم هانئ . » وهذا من ام هانئ مداخلة في امور سياسية عسكرية . وقد رأى النبي (ص) ان لها الحق فيما فعلت . ولم يقل لها : ان هذا ليس من شأنك فعليك بالطبخ والزينة وتربية الاولاد فقط .

ولكن مع هذا ايتها السيدات كان محمد يرى ان الزينة وادارة المنزل هما اكبر وظائف المرأة .

فكما كان يباهي بالمرأة القرشية التي تحفظ مال زوجها وتعكف على تربية اولادها — كان في الوقت نفسه يعجبه ان لا تنسى المرأة انوثتها ، ولا تهجر زينتها ، ولا تعطل بحال من الاحوال امومتها ، حتى انه كان يكره ان لا يرى اثر الخضاب في كفي المراة (وكان الخضاب اجمل زينة للنساء في

العصور الماضية) .

قالت ام سنان : بايعت النبي على الاسلام فنظر الى يدي وليس فيها اثر للخضاب فقال :

« ما على احدا كن ان تغير اظفارها وتعصب يدها ولو بسير» فهو يحضها على الخضاب وان يكون في معصمها سوار ولو سيراً من جلد . »

* * *

عرف محمد (ص) نفيسة المراة وغرائزها الخاصة بجنسها فكان يعاملها بمقتضى ما عرفه منها : فيكثر من تأنيسها والرفق بها و إلانة القول لها .

وان كثيراً مما كان يعامل به نساءه نراه اليوم غير لائق ولا مناسب :

من ذلك انه كان يخرجهن معه في اسفاره .

وكانت احداهن اذا ارادت الركوب بسط لها ركبته لتدوس عليهاوتصعد الى هودجها .

واذا كان معها في الفلاة سابقها اشواطاًلاجل الرياضة وادخالالمسرةعليها .

وادخل الحبشةيوم عيد الى المسجد لترى لعبهم بالحراب كما يلعبوناليوم بالسيف والترس .

وكان للنبي (ص) جارمن بلاد فارس ، فدعا هذا الفارسي النبي الى طعام ولم يدع معه زوجته السيدة عائشة . فلم يقبل النبي الدعوة ما لم تكن معه عائشة فدعاها . وكأن النبي يرى ان ترك دعوتها اهانة لها ، ولذا رفض الدعوة ما لم تدع هي ايضا .

ونهى الرجل عن ضرب زوجته ونبهه الى ان ضربها لا يلائم طبيعة ما

بينهما من العلاقة الزوجية: يضربها العصر ثم لا يلبث في العشي ان يتملقها، و يلح في استرضائها، فما اغناه عن الحالتين.

وما زالت الشرائع الانكليزية الى اليوم تجيز للزوج ان يضرب زوجته لكن بعصا لا تزيد ثخانتها على الاصبع.

وكان النبي (ص) يكرم حاضنته (بركة الحبشية) ويقول للصحابة: هذه امي بعد امي. وكان يمازحها احيانا: طلبت منه جملا تركبه. فوعدها بان يهدي اليها ابن الناقة. فصاحت: وماذا اصنع بابن الناقة، وهل يطيق ان يحملني؟ اريد جملا. فضحك الصحابة وقالوا لها: ويحك يا بركة. وهل الجمل الا ابن للناقة؟ ورأى النبي (ص) في صبيحة يوم من الايام نساء مقبلات من عرس ومعهن صبيانهن فوقف لهن وهتف قائلا: «اللهم انتم من احب الناس الي. اللهم انتم من احب الناس الي».

نعم ايها السادة هو يحب النساء لأنهن يربين الرجال كما ربته (بركة) في يتمه، ويساعدن الرجال في النهضات الكبرى كما ساعدته (خديجة) في نهضته، وينشرن الثقافة والعلم عن الرجال كما فعلت (عائشة) منذ حملت عنه ثقافته وبلغت امته سنن شريعته.

✡ ✡ ✡

تبشير محمد (ص) بالمرأة و تحريره لها من عبوديتها القديمة لم يخف امره على العلماء من كتبة أوربا حتى غير المنصفين منهم. فقد قال المستشرق (اندره سرفية) في كتابه الذي سماه: الاسلام ونفسية المسلمين L'Islam et la Psychologie des Musulmans. ما نصه:

« يتحرى محمد الاسباب التي تجعل المراة من حزبه ولا يتكلم عنها الا بكل لطف ، ويجتهد في ان يحسن احوالها .

وكان النساء والاولاد قبله لايرثون . بل من ذلك ان الاقرب نسبا للميت هو الذي كان يرث نساء الميت في جملة ما يرث من مال ورقيق . وعندما نهض محمد اعطى المرأة حق الأرث . واوجب كل ما كان حسنا في حقها ، ثم قال : « ومن اراد التحقق من عناية محمد بالمرأة فليقرأ خطبته في مكة التي اوصى فيها بالنساء . فمحمد لا يجهل ان المرأة اذا كانت اسيرة في النهار فهي سيدة في الليل وان نفوذها ابداً عظيم » .

هذا ما قاله اندره سرفيه وهو بالرغم من طعنه في محمد — لم يتمالك عن التصريح بأنه حرر المرأة .

بل ان العالم الالماني (دريسمان Driesman) صرح بان اعطاء محمد المرأة حريتها هو وحده السبب في نهوض العرب وقيام مدنيتهم . ولهذا لما عاد اتباعه فسلبوا المرأة هذه الحرية انحطوا واضمحلت مدنيتهم .

❀ ❀ ❀

وقول اندره سرفيه « ان محمداً لا يجهل ان المرأة اسيرة في النهار » فيه لمز وتشنيع بالاسلام يحق لنا ان نعاتبه عليه : لا نعلم ما هذه الامور التي جعلت اندره سرفيه واضرابه يلهجون بان المرأة المسلمة اسيرة او في حكم الاسير ؟ ايريدون بتلك الامور يا ترى : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، وتنصيف الارث ، وتنصيف الشهادة ؟ لا يمكننا ان نتكلم عن هذه الامور الخمسة او الكليات الخمس بالتطويل وذلك لضيق الوقت من جهة ولان هذه

الكليات طال فيها الجدال بين المسلمين وغيرهم بحيث اصبح الحديث عنها مملا . ومع هذا فسأقول فيها كلمات تلفونية :

* * *

اول هذه الامور (الحجاب) وكلمتي فيه ان البشر من يوم اخذوا هذا الطور الاجتماعي وجد فيهم طبقات ارستقراطية يرون من مصلحتهم او تميزهم ان يحتجبوا او يقللوا مخالطة غيرهم من الطبقات وهذا كما يفعل الملوك والملكات بل عظماء الناس ونساؤهم الى يومنا هذا .

ونبوة محمد (ص) ليست من الارستقراطية في شيء : فلم يضرب بينه وبين عامة الناس حجابا : فكانوا يدخلون بيته لتلقي العلم كما يدخل التلاميذ مدرسة استاذهم . لكن بعض هؤلاء التلاميذ كانوا ثقلاء في حديثهم وطول زياراتهم .

فأشار عمر على النبي (ص) بمنع الناس من دخول بيته فلم يوافقه النبي احتفاظا بما نسميه اليوم (ديمقراطية) وتجنبا للمظاهر الملوكية .

ثم اشتدت ثقالة الثقلاء فنزل الوحي بحجاب نساء النبي وعدم دخول احد من الناس بيته ، اللهم الا في احوال خاصة . هذا هو المظهر الوحيد من مظاهر الارستقراطية الذي اضطر اليه محمد بسائق الحاجة الماسة .

ثم اخذ المسلمون يقلدون نبيهم عملا بقاعدة « الناس على دين ملوكهم » فحجبوا نساءهم حتى اصبحت كل امرأة مسلمة ملكة محجبة ، وكل بيت لمسلم بلاطاً ملوكياً .

ولكن ما اسوء مصير الامة التي ليس فيها رعايا عاملات وانما كل نسائها

ملكات الحجبات !

فالحجاب الاسلامي ياسيداتي وسادتي انما هو اثر من آثار ارستقراطية المرأة وماسكيتها في الاسلام، وليس هو اثراً من آثار احتقارها او عبوديتها.

انتهت كلمتي في الحجاب، وانتقل الى الكلمة الثانية في توريث البنت نصف ارث اخيها.

هذا الحكم الشرعي الاسلامي يجيب عليه الشارع الانكليزي الذي لم يورث البنت بل حصر ثروة الأب في اكبر الأبناء. وذلك لأن البكر عميد الاسرة، وحامل لقبها، والمحافظ على تراث مجدها.

وكذلك شأن الابناء الذكور بالنسبة الى الاسرة في نظر الشارع الاسلامي: فأن الابناء لما كانوا هم الذين يخلفون اباهم في اسرته؛ كانوا في حاجة الى المال اكثر من اخواتهم البنات اللواتي يندمجن في اسرة اخرى، غير مكلفات فيها النفقة.

فالمسألة اذن ليست مسألة تفضيل رجل على امرأة وانما هي مسألة اجتماعية اقتصادية.

على انه ظهر اخيراً لمديري المعامل الصناعية ان متوسط قوة المرأة اقل من نصف متوسط قوة الرجل ومن اجل ذلك ضاعفوا اجرته.

✲ ✲ ✲

والامر الثالث من الامور الخمسة شهادة المرأة نصف شهادة الرجل وكلمتي في الجواب عليه ان سر الشرع فيه ليس لكون محمد يعتقد في المرأة الحقارة او انها تكذب في شهادتها.

وانما هو يرى ان المرأة بعيدة عن معترك الاعمال التي يقوم بها الرجال

والتي تكثر فيها الدسائس والمخادعات مما المرأة عليه من ضعف ثقتها بنفسها، وقلة ضبطها، وسرعة انخداعها، حتى انهم قد يخدعونها بقولهم لها: ياحسناء فما بالكم بغيرها من كلمات التمليق والثناء؟!!

هذه هي نفسية المرأة التي تحققها محمد (ص) فرأى ان تتعزز عند تحمل الشهادة بواحدة من بنات جنسها، فتذكر كل منهما صاحبتها. وتتعاونان على التثبت من الامر الذي تشهدان فيه. فتنصيف الشهادة اذن هو اثر من آثار اعتقاد السذاجة الملائكية في المرأة، لا اعتقاد الحقارة او خراب الذمة فيها. على ان محمداً (ص) ميز المرأة على الرجل في بعض مواطن الشهادة: الرجل لاتقبل شهادته وحده اما هي فتقبل شهادتها وحدها في الامور الخاصة بالنساء.

وكفى بهذا دلالة على ثقة الشارع بالمرأة واعتقاد سلامة وجدانها.

* * *

ومن الامور التي يشنع بها العالم المتمدن على محمد (ص) (شريعة الطلاق) لكن هذه الشناعة عادوا فشاركونا فيها بمقياس اوسع.

محمد يعلم اننا مهما تحرينا ان يكون الزوجان متلائمين في اخلاقهما وطباعهما لابد ان يقع (سوء استعمال) في هذا التحري؛ حتى يؤدي تباين الطباع بين الزوجين احيانا كثيرة الى فساد الحب الزوجي وتنغيص الهناء العائلي؛ فيضطر اذ ذاك الى التفرقة، وكثيراً ما كانت هذه التفرقة في مصلحة الزوجة فتتخلص من زوجها الشرير.

ومع هذا فان محمداً يكره الطلاق، ويأمر بالصبر. ففي القرآن (وعاشروهن

بالمعروف : فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

فالوحي المحمدي كابر الرجل في حسه مراعاة للمراة حتى قال للرجل : انك وان شعرت بكره لامرأتك . ما يدريك ان يكون في هذا الكره الخير الكثير ؟ فاصبر عليها إذن .

الى هذا الحد حضّ محمد (ص) على تجنب الطلاق . لكن اتباعه خالفوا ناموس شريعته فنزل بهم البلاء .

وهذا لا ترجع تبعته عليه : الا ترون ان النواميس الطبيعية نفسها كنواميس الصحة والمرض مثلا : يخالفها الناس فيحل بهم الشقاء ؟

وليس الذنب في ذلك على الاطباء ، ولا على العناية الالهية التي خلقت تلك النواميس . وانما الذنب على الذين خالفوها . قال شيشرون : « من كان غير سعيد فالذنب ذنبه » .

افرط المسلمون في الطلاق فطلقوا من دون قيد ولا شرط . وفرط النصارى فلم يطلقوا حتى عند وجود الضرورة .

ثم في آخر الامر احس الفريقان بالشقاء فعاد المسلمون في تركيا الى تضييق دائرة الطلاق ، وعاد النصارى في اميركا وانكلترا الى توسيع تلك الدائرة . وستكون النتيجة الاعتدال والتوسط ومراعاة الحكمة في التطليق وهو ما اراده محمد في تشريع الطلاق .

* * *

وآخر الامور الخمسة التي يعيبون بها المسلمين (تعدد الزوجات)

وكلمتي في هذا الموضوع تحتاج الى شيء من الجرأة في التصريح . ولكنني مع هذا سأعمل جهدي في العدول عنه الى الاشارة والتلميح . واقول اولا : ان محمداً (ص) لم يخاطب بشرعه طبقة واحدة من مجموعة البشر كما خاطبها غيره من المشترعين . وانما هو كان يخاطب الطبقات كلها او الامم كلها : وفيهم امة متوحشة ، وامة نصف متمدنة ، وامة متمدنة .

فمحمد (ص) في تعدد الزوجات يقول لكل امة : خذي من شريعتي المرنة ما يناسب محيطك ، وحالة اجتماعك.

فاذا قالت طبقة من البشر : انا لا اعدد . قال لها محمد : تحسنين صنعا لأن التعدد في شريعتي مباح لا واجب .

لكن هناك طائفة اخرى في افريقية او الصين مثلا تضطرها حالة اجتماعها او امزجة طباعها الى التعدد .

فمحمد اذا دعا هؤلاء الى دينه لا يقسر طباعهم على ما يريد ، ولا يكلفهم ترك التعدد خشية ان يدخل عليهم العنت والمشقة ، ما داموا في هذا الطور من اطوارهم الاجتماعية ، ومن ثم اباح لهم التعدد . ولا سيما اذا كان احد الزوجين عقيما ، او كثر عدد النساء بسبب اجتياح الحروب للرجال كما هو واقع اليوم في اوروبا ، اولغير ذلك من الاسباب .

* * *

بل نعود فنقول : مالنا وللأمم التي يبيح لها محمد التعدد بسائق من بيئتها او امزجتها ؟

هذه الامم المتمدنة نفسها . تعدد بالفعل ، وتنكر بالقول ، وتسب الذين

يعددون .

عرف محمد امزجة البشر ودرس طبيعة رجولتهم درسا عميقا . فهو يكافح هذه الطبيعة وجها لوجه ، ويقول لأصحابها :

ألستم بالفعل لا تصبرون على طعام واحد ؟ ألستم مدفوعين بسائق من طبيعتكم او امزجتكم او اسباب اخرى — الى ان تعرفوا امرأة ثانية غير امرأتكم الشرعية ؟ امحوا هذه الطبيعة من نفوسكم حتى امحو انا التعدد من شريعتي .

وماذا ينفع الانكار او تحدى المكابرة في هذه المسألة ؟

ان كنا لا نرى اليس لنا آذان تسمع ؟

هؤلاء الرجال الذين يريدن ان يعرفوا نساء غير زوجاتهم الشرعيات لا يقول لهم محمد : اعرفوهن بالحرام ، واحشروا سلالتكم الى ملاجيء اللقطا والايتام . بل يقول لهم : اذا كنتم ولا بد فاعلين ، فاعرفوا المرأة الثانية عن طريق تسامح الدين . اعرفوها عن يد الشيخ والقسيس ولا تعرفوها عن يد الشيطان وابليس .

فاباحة الزوجة الثانية في شرع محمد اذن انما هو سد لحاجة الطبيعة البشرية المتمردة التي لا تقاوم في بعض الاشخاص .

على ان كل خطر على العائلة نتوقعه من وراء التعدد ينبغي ان نتوقع مثله من وراء اتخاذ الخلائل . فالعائلة اذن معرضة للخطر في الاوساط غير الاسلامية كما هي معرضة للخطر في الاوساط الاسلامية

وقد بلغنا لهذا العهد ان المشترعين في اوربا اخذوا يفكرون في وضع قانون للتعدد السري يضيق دائرة شره ، وينقذ العائلات من الشقاء الذي

يلحقها بسببه

هذا هو اينها السيدات و السادة ما اردت ان اقوله في موضوع محمد(ص) والمرأة .

وقد تحققتم منه ان محمداً انما جاء للتبشير بالمرأة ومنحها حريتها ، وان الطلاق و بقيته الامور الخمسة لا تشوه تلك الحرية بحال . ولكن اذا كان محمد (ص) يريد للمرأة ان تكون حرة بالمعنى الحقوقي فهو في مقابل ذلك يريد منها ان تكون حرة بالمعنى الاخلاقي .

فالحرة غير الحرة ، تجعل الحياة مرة .

اما الحرة الحرة ، فهي التي تكون للعين قرة ، وفي جيد المحافل درة ، و في جبين وطنها غرة .

القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في بيروت مساء الاربعاء في ١١ كانون الثاني ١٩٢٨

محاكمة وزيرين في امرين خطيرين

عقدت جلسة المحاكمة في دار الخليفة المقتدر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) . وكان الخليفة نفسه هو الذي يرأس الجلسة . وقد شهدها كل من (حامد بن العباس) وزير المقتدر يومئذ و (علي ابن عيسى) أحد وزراء الدولة السابقين . والقاضي (احمد بن البهلول) والقاضي (ابو عمر) ، وطائفة من خواص الخليفة .

وكان الوزير (حامد بن العباس) بمنزلة المدعي العام في تلك الدعوى المقامة على الوزير المنفصل عن الوزارة أبي الحسن بن الفرات . وكان خواص الخليفة الذين حضروا هذه المحاكمة منحرفين عن (ابن الفرات) محبين لمكروهه .

ولما افتتحت الجلسة طلب الوزير (حامد بن العباس) إدخال رجل فأسرع أحد الحجاب . وأدخل رجلا بزيّ الأجناد . وأوقفه حيث يقف أمثاله .

فقال الوزير (حامد) : إن هذا الجندي امسك في اثناء رجوعه من مدينة (أردبيل) الى (قزوين) (فاصفهان) (فالبصره) . ولما خلوت به اقرّ واعترف بأنه رسول من قبل (ابن الفرات) واشار الى المتهم ارسله الى (ابن أبي الساج) من اجل المبايعة بالخلافة لرجل من العلويين المقيمين بطبرستان . ويقول (ابن الفرات) في الرسالة التي أرسلها الى (ابن ابي الساج) إن عليه ان يؤازر العلويّ ويجهزه بجميع ما يلزم له . ويسيره الى بغداد حتى

اذا وصل اليها ساعده (ابن الفرات) على ما يريد من امر الخـلافة . وحمل الناس على مبايعته .

ثم أكمل الوزير كلامه قائلا :

وإن هذا الجندي تردد عدة مرات بين (ابن الفرات) و (ابن ابي الساج) في هذا المعنى . وها هو الان بين يدي الخليفة فليصدقنا عما عنده في ذلك .

عندها طلب من الجندي أن يتكلم . فذكر مثل ما أخبر به الوزير (حامد) وزاد عليه أن (موسى بن خلف) هو من المشايعين أيضاً لابن الفرات في (هذه الخيانة . وانه من دعاة العلويين . وأن (ابن الفرات) كان يرسله الى ابن ابي الساج) بشأن المبايعة للعلوي اما (ابن ابي الساج) هذا فهو المسمى بالأفشين وكان من اكبر العمال في آخر القرن الثالث للهجرة . فكان يتولى الولاية في الجزيرة والموصل والكوفة : تارة يكون عاملا من قبل (خمارويه) ابن (احمد بن طولون) وطوراً من قبـل (الموفق) الخليفة العباسي . وفي آخر الامر ولاه الخليفة (آذربيجان) ومن مدنها (أردبيل) التي قـال الجندي إنه امسك لما كان راجعاً منها برسالة من (ابن ابي الساج) الى (ابن الفرات) بشأن مبايعة العلوي .

ولما استتم الجندي كلامه على مسمع من الخليفة المقتدر بالله وحاضري الجلسة اغتاظ الخليفة غيظاً شديداً وأقبل على قاضيه « أبي عمر » وقال له :

ــ ما عندك في من فعل هذا ايها القاضي ؟

ــ لئن كان « ابن الفرات » فعل ذلك فقد اتى امراً عظيما فظيعا . واقدم على امر يضر بالمسلمين جميعا . واستحق كيت وكيت من العقاب .

فلما سمع (علي بن عيسى) من القاضي هذا القول — و (علي بن عيسى) هو من الوزراء السابقين كما قلنا و من المرشحين للوزارة — ظهرت الكراهية في وجهه ، والانكار لهذه الدعوى ، والطنز « ١ » بما قيل فيها . وقدشعر القاضي احمد البهلول منه بهذا النفور والاشمئزاز من التهمة . فقويت نفسه وتحفز للكلام والدفاع عن (ابن الفرات) المتهم . فأقبل الخليفة عليه وقال له :

— ما عندك أنت يا احمد فيمن فعل هذا (من مكاتبة ابن ابي الساج بشأن مبايعة العلوي)

— إن رأى امير المؤمنين ان يعفيني .

— ولمه ؟

— لأن الجواب ربما أغضب من انا محتاج الى رضاه . اذ هو يخالف ما يوافقه ويهواه . من حيث يضر بي (و يعني بالذي يغضب من كلامه الوزير حامد الذي نصب نفسه بمقام المدعي على ابن الفرات كما أشرنا)

— لا بد أن تجيب

— الجواب يا أمير المؤمنين ما قال الله في كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ومثل هذه التهمة يا امير المؤمنين لا يقبل فيها خبر الواحد . والعقل يأبى قبول مثل هذه التهمة على رجل مثل (ابن الفرات) . أتظن (ابن الفرات) يرضى ان يكون تابعاً لابن ابي الساج ؟ ولعله ما كان يرضى وهو

« ١ » الطنز الهزء والسخرية .

وزير ان يستحجبه [1]

ثم أقبل القاضي (البهلول) على الجندي فقال له :

ــ صف لي (أردبيل) : أعليها سور أم لا ؟ فانك على ما تدّعيه من دخولها لا بد ان تكون عارفاً بها . واذكر لنا صفة باب دار الامارة (يعني سراي الحكومة في اردبيل) هل هو حديد او خشب ؟

فتلجلج الجندي . ثم قال له القاضي (البهلول) :

ــ كاتب(ابن ابي الساج ابن محمود) ما اسمه ؟ وما كنيته ؟ فلم يحر الجندي جواباً . ثم قال له القاضي البهلول :

ــ اين الكتب التي معك من ابن ابي الساج لابن الفرات ؟

ــ اني لما احسست بأني قد وقعت في ايدي الجنود رميت بها خوفاً من ان توجد معي فأعاقب .

فأقبل القاضي (البهلول) اذ ذاك على الخليفة المقتدر وقال له :

ــ يا امير المؤمنين : هذا رجل جاهل متكسب مدسوس من قبل عدو لابن ابي الفرات .

وساعد البهلول في قوله هذا « عليّ بن عيسى » فقال :

ــ قد قلت هذا للوزير ايده الله ، وأشار الى حامد بن العباس المدعي ، فلم يقبل قولي . وعندي ان هذا الجندي اذا هدد تهديداً من دون ان يضرب اقرّ بالصورة.. فاقبل (المقتدر) على احد حجابه (نذير الحرمي) وقال له :

ــ بحقنا عليك إلا ضرب هذا الجندي مئة مقرعة اشدّ الضرب الى ان

---

(١) يستحجبه اي يتخذه حاجباً له

يصدق عن الصورة .

فأخذ (نذير) بيد الجندي من حضرة الخليفة ليضربه بعيداً عنه . فقال الخليفة :

ـ لا إلا ههنا .

فضرب بالقرب منه دون العشرة مقارع . واذا به يصيح قائلا :

ـ غدرت وضمنت لي الضمانات . و كذبت . والله ما دخلت (اردبيل) قط .

فطلب الخليفة حضور صاحب شرطته (نزار بن محمد الضبي) فقال الحاضرون قد انصرف يا امير المؤمنين ! فالتفت الى (علي بن عيسى) وقال له :

ـ وقع [1] اليه بأن يضرب هذا الجندى مئة سوط و يثقله بالحديد و يحبسه في المطبق . [2] فلما سمع الوزير حامد كلام الخليفة كاد يسقط انكساراً وانخزالا ووجداً واشفاقا .

ثم انفض المجلس من بين يدي الخليفة . فاما الوزير حامد فانصرف الى داره . ودخل حاضروا الجلسة الى غرفة (نصر) رئيس الحجاب . واخذ (علي ابن عيسى) ينظر في حوائج الناس بالنيابة عن الوزير المنخزل . وامر ان يؤخر الجندي المفتري : فلا يذهب به الى دار الشرطة فقال له حاجبه (ابن عبدوس) : انه اخذ اليها بأمر الخليفة . فقال القاضي البهلول اذ ذاك (لعلي بن عيسى): ان هذا الجندي وان كان قد جهل فانه قد عنى ما لحقه وأخاف أن يموت تحت الضرب فأكون أنا سببه . فان أمكنك أن تسقط عنه السياط

«١» (وقع اليه) هنا بمعنى اكتب اليه

«٢» المطبق على وزن مكرم السجن تحت الارض و يسمى المطمورة ايضاً

كلها أو بعضها كان لك الأجر. فاجابه (علي بن عيسى) ــ: ما في هذا لعنه الله أجر. ولكن أقتصر على خمسين مقرعة وأعفيه من السياط. ثم كتب بذلك الى (نزار) رئيس الشرطة.

وهكذا انتهت المشكلة بين الوزير (حامد) و(ابن الفرات) بفضل تيقظ (علي بن عيسى) و(القاضي البهلول). وعادت امور الادارة الى مجراها الطبيعي.

ثم لم يلبث الخليفه المقتدر أن أصدر أمره بعودة (ابي الحسن بن الفرات) الى الوزارة. فأعيد اليها في شهر ربيع الاخر سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) فكان اول همه ان سعى بقتل خصمه (حامد بن العباس) الذي كان اتهمه وحاكمه منذ خمس سنوات بجرم الخيانة العظمى. وكاد يحكم عليه لو لم يتداركه القاضي البهلول فدافع عنه بقوة حجته، وشدة عارضته [1] حتى انقذه

وبعد ان استراح (ابن الفرات) من حامد جعل يهيء الدسائس للوزير (علي بن عيسى) مع ان (علياً) هذا كان في اثناء محاكمة ابن الفرات الانفة الذكر ميالا إلى تبرئته وساعده القاضي (ابن البهلول) وشدد عزيمته حتى بلغا مأربهما وبرآه.

لكن الوزير (ابن الفرات) للؤم قام في نفسه اضمر السوء لعلي بن عيسى هذا بل للقاضي البهلول ايضا. فلم يمض على وزارته شهران حتى وشى للخليفة (المقتدر) بعلي واتهمه بالخيانة العظمى. فأمر الخليفة بمحاكمته وعين لها يوما.

---

(١) (العارضة) البيان واللسن والقدرة على الكلام. والبديهة. والرأي الجيد. وتنقيح الكلام

جاء اليوم المعين . فانعقدت الجلسة في دار الخليفة المقتدر يوم الخميس الواقع في ٥ من جمادى الاخرة سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م)

وقد تربع على منصة الرئاسة لأجل الفصل في هذا الدعوى (الوزير ابو الحسن بن الفرات) . أما الاعضاء فهما القاضيان السابقان في الدعوى الاولى : (محمد بن يوسف أبو عمر) و (أحمد بن البهلول) وكاتبا الضبط هما (أبو الحسن ابن ابى قيراط) و (أبو الطيب الكلوذاني) كلاهما كاتبا الوزير (ابن الفرات) و يساعدهما في ضبط الدعوى (أبو محمد بن ذكويه) كاتب نصر [١] القشوري .

وقد شهد هذه المحاكمة ايضا الخليفة المقتدر نفسه لكنه جلس في موضع يقرب من مجلس الحكم بحيث يسمع كل ما يدور في الجلسة من الكلام ولا يراه أحد .

اعلن الرئيس افتتاح الجلسة . وطلب إحضار المدعي (ابن قليجة) . فناداه الحاجب . فدخل وجلس في مكان خاص .

ثم أدخل المدّعى عليه (عليّ بن عيسى الوزير السابق) فجلس بجانب خصمه . وكان بين الوزيرين (ابي الحسن بن الفرات) الذي ترأس في المحاكمة والمتهم (علي بن عيسى) منافسة شديدة من اجل تسنم كرسي الوزارة : فكان هذا يتولاها مرة . وذاك اخرى .

وقد حوكم (ابن الفرات) في المحاكمة السابقة وشهد الجلسة (عليّ بن عيسى) وساعد على تبرئته بمعونة القاضي البهلول كامر . لكن (ابن الفرات)

---

(١) لعل (نصر) هذا هو رئيس الحجاب ومر ذكره في المحاكمة الاولى

بقي يضمر له السوء ويتربص به الدوائر حتى ورطه في هذه الدعوى المشؤومة.

ومن العجيب أن يكون (ابن الفرات) خصما وحكما في آن واحد. ويتولى ضبط الدعوى كاتباه الخاصان (ابن ابي قيراط) و (أبو الطيب الكلوذاني).

فلم يبق رجاء في درء الظلم عن المتهم الا بالقاضيين (ابي عمر) و (البهلول)

افتتح الرئيس ، ابن الفرات ، الكلام موجها الخطاب الى المتهم الوزير السابق (علي بن عيسى) قائلا :

— انك يا هذا في اثناء وزارتك كنت البادئ بالكتابة الى القرامطة اعداء الخلافة. وقد اجابوك : فكتبوا اليك يلتمسون منك أن ترسل اليهم المساحي والطلق وعدة حوائج. فانفذت جميع ذلك اليهم. اتهمه الوزير بانه امد الاعداء بالعدد والذخائر. وخص بالذكر (المساحي) وهي المجارف و (الطلق) وهو حجر أو معدن هش المكسر، سهل التفتيت. ولكونه شفافاً تتخذ منه مضاوي بدلا من الزجاج.

ولكن لماذا كان المتهم يرسل (الطلق) الى القرامطة ؟ سيأتي بيانه في كلام الوزير رئيس الجلسة وقوله (وأرسل اليهم عدة حوائج) كأنه يريد أن يؤثر على الاعضاء : فهو يوهمهم أن المتهم أرسل الى القرامطة أسلحة وادوات اخري ممنوعة التصدير.

ثم اخرج (ابن الفرات) كتابا فرفعه بيده واراه للحاضرين قائلا :

وهذا هو تسويد الكتاب الذي ارسله المتهم (علي بن عيسى) الى القرامطة جواباً على كتابهم إليه . وهو من انشأ كاتبه « ابن ثوابة » . وقد اصلحه المتهم نفسه بخط يده .

وطفق الوزير يقرأ الكتاب بصوت جهوري حتى اتمه .

اما محل الجناية او الخيانة في هذا الكتاب فقد بينها الوزير لهيأة المحكمة بقوله : إن المتهم في خطابه للقرامطة لم يقل لهم « انكم خارجون عن ملة الاسلام بعصيانكم امير المؤمنين و بمخالفتكم اجماع المسلمين وبشقكم العصا . بل قال لهم « انكم خارجون عن جملة اهل الرشاد والسداد . وداخلون في جملة اهل العناد والفساد . »

يعني ان المتهم في قوله هذا لم ينسب القرامطة الى الكفر والخروج عن ملة الاسلام بل نسبهم الى الفسق والفساد في الارض فقط . وهذا بالطبع لا يستلزم الكفر .

و (القرامطة) هم فرقة الباطنية المشهورة في التاريخ الاسلامي . كان ظهورهم في آخر القرن الثالث للهجرة . واستمرت صولتهم نحو مئة وخمسين سنة . ثم اخذت دولتهم تضمحل رويداً رويداً حتى زالت بالمرة سوى طوائف متفرقة منهم تدين بدينهم او بما يشبه دينهم ، منتشرة في سوريا و كيليكيا وفي الهند . وطائفة منهم في الهند تسمى (البهرة) رغيمها الاكبر (آقاخان) المشهور . وهو الذي كان رفع صوته بالدفاع عن حقوق الخلافة مذ اسقطها الكماليون . وقد احدث صوته في تركيا ضجة عظمى بحيث خيف ان تعقبها ثورة شؤمى .

نرجع الى مجلس المحاكمة :

التهمة الموجهة الى الوزير (علي بن عيسى) ذات شعبتين :

(الاولى) إرساله (المساحي والطلق وعدة حوائج) الى القرامطة .

و (الثانية) مخاطبته لهم بما يفيد أنهم إخوانه في الدين. وليسو من الكافرين

اما خصمه الوزير «ابن الفرات» فهو ينكر اشد الانكار ان تكون القرامطة من اخواننا في الاسلام ولذلك رفع صوته بتجهيل المتهم (ابن عيسى) وقال له : ويحك !! تقول : ان القرامطة مسلمون وقد وقع الاجماع على انهم اهل ردة ؟ ؟ ثم انك فوق ذلك ترسل اليهم الطلق : وهو الذي اذا طلي به البدن او الثياب لم تعمل فيهما النار ؟ هكذا قال الوزير (ابن الفرات) عن (الطلق) مبينا خاصيته التي تجعله من المواد الحربية الممنوع تصديرها الى العدو، وهو كذلك : فان كيماوي هذا العصر يقولون : ان (الطلق) اذا طلي به شيء وكان الطلاء طبقة كثيفة ثم عرض ذلك الشيء المطلي على النار لا تحرقه ولا تؤثر فيه. لان « الطلق » موصل رديء كما يقول علماء الطبيعة فهو لا ينقل الحرارة الى ما تحته ولا يدع تأثير النار يصل الى الشيء المطلي به واليسوعيون في معجمهم العربي الافرنسي « الفرائد الدرية » فسروا الطلق بالاميانت (Amiante) ولا اراهم مصيبين لان الاميانت معدن آخر له الياف تغزل وليس بشفاف .

سمعنا من الوزير « ابن الفرات » نوع التهمة الموجهة الى خصمه « علي بن عيسى » بقي علينا ان نسمع ماذا يقول المتهم المذكور في الدفاع عن نفسه . قال :

— انما قلت في خطاب (القرامطة) انهم اهل فساد ولم اقل انهم كفرة لأني اردت المصلحة وارجاعهم الى الطاعة بالرفق وبغير حرب .

فلم يعجب قوله الوزير (ابن الفرات) بالطبع . فأراد استفتاء علماء الدين في المسألة . فالتفت اولا الى القاضي ابي عمر احد العضوين وقال له :

— ما عندك في هذا يا ابا عمر ؟ وأرى ان تكتب رأيك كتابة . فلم يفعل ابو عمر ما امره به الوزير ، وانما التفت الى المتهم وخاطبه قائلا :

— يا هذا انك قد اقررت بما لو اقر به الخليفة لجاز للناس ان يمرقو من طاعته .

فلما سمع المتهم (علي بن عيسى) قول القاضي كاد يتميز من الغيظ . وحدق اليه ببصره تحديقا شديداً : لعلمه ان الخليفة (المقتدر) يسمع كلامه من وراء الستار .

وجعل الوزير ابن الفرات يلح على القاضي (ابي عمر) بأن يكتب ما قاله في سجل الضبط . فلم يرض القاضي وانما قال — : إن المتهم قد غلط غلطاً . وليس عندي كلام غير ذلك . فأجابه (ابن الفرات) :

— حسن ولكن اكتب شهادتك على إقرار المتهم بأن هذا الكتاب هو كتابه إلى القرامطة .

فكتب القاضي شهادته على ذلك .

كل هذا كان يجري في الجلسة وشيطان الباطل يضحك في كمه فرحا وسروراً . ويعجب من دهاء الوزير ابن الفرات وسذاجة القاضي أبي عمر .

ولكن ألا يوجد في بغداد قضاة كما وجد في برلين ؟

بلى! فان د و ر الكلام لماوصل الى القاضي ابن البهلول التفت اليه الوز ير ابن الفرات وقال له :

ـــ وما تقول أنت يا أبا جعفر . في هذا الأمر المنكر؟

فقال :

ـــ إن أذن لي الوزير أيده الله أن اقول ما عندي فيه على شرح قلته .

ـــ قل يرحمك الله .

ـــ صح عندي أن (عليّ بن عيسى) كتب الى القرامطة في اثناء وزارته كتابين أنقذ بهما ثلاثة آلاف رجـــل من المسلمين كانوا مستعبدين عند القرامطة . وهم أهل نعم واموال . فرجعوا الى اوطانهم وإلى نعمهم . فـــاذا كتب أحد مثل هذا الكتاب (الذي قرأته علينا أيها الوزير في هذه الجلسة) على جهة طلب الصلح والمغالطة للعدو لم يجب عليه بشيء . فتغير وجه (ابن الفرات) لما سمع كلام القاضي ابن البهلول وقال له :

ـــ ولكن ما قولك في ما أقرّ به (عـــلي بن عيسى) من أن القرامطة مسلمون .

ـــ إذا لم يصحّ عنده كفرهم وكاتبوه مفتتحين كتابهم ببسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا عن أنفسهم إنهم مسلمون وإنهم انما ينازعون في أمر الخلافة فقط ـــ لم يعد يجوز بحال إطلاق الكفر عليهم .

فبهت ابن الفرات من هذا الجواب الذي ما كان ينتظره من القاضي البهلول (حياه الله) . لكنه تجلد للأمر وكظم غيظه ، وصاح في وجه

القاضي كالمنكر عليه تساهله مع المتهم الى هذا الحد . وقـــال له منتقلا الى الشق الاخر من التهمة :

ـــ وما تقول ايها القاضي في الطلق الذي انفذه المتهم الى أعداء الخلافة : فاذا طلي به البدن وغيره لم تعمل فيه النار . اخبرني يها القاضي ! ما تقول في هذا ايضا ؟

عندها اقبل القاضي على المتهم وسأله قائلا :

ـــ هل انفذت الطلق الذي هذه صفته إلى القرامطه ؟ فاجاب .

ـــ لا

فقال الوزير ابن الفرات :

ـــ ولـكن هذا رسولك وثقتك (ابن قليجه) واشار اليه (وكان ابن قليجه ساكتا لا يتكلم) قد اقر عليك بارسال الطلق .

فعرت المتهم دهشة وأفحم عن الكلام .

عندها التفت الوزير ابن الفرات الى القاضي البهلول وقال له :

ـــ إحفظ اقراره بأن رسوله (ابن قليجه) اقرّ عليه بارسال الطلق الى القرامطة .

فأجابه القاضي :

ـــ ايهـا الوزير لا يصح أن يسمى إبن قليجة مقراً وانمـا هو مدع وعليه البينة .

فقال (ابن الفرات) :

ـــ هو ثقته ورسوله الى القرامطة .

فقال القاضي :

ـــ انما استوثق به في حمل الكتاب اليهم فلا يقبل قوله في حمل الطلق من دون بينة .

عندها احتد الوزير ابن الفراث وقال للقاضي :

ـــ أأنت وكيله حتى تحتج له . وتدافع عنه . وما أنت الاحاكم .

ـــ لا لست وكيله أيها الوزير ولكنى اقول الحق في هذا الرجل كما كنت قلته في حقك أيدك الله لما أراد خصمك الوزير (حامد بن العباس) وجماعته أن يحتالوا عليك ويورطوك في ما هو اعظم بكثير من هذا الذي تريد ان تورط فيه هذا الرجل . (وأشار الى علي بن عيسى) فان كنت لم أصب يومئذ فلست مصيباً الان . وفي قول القاضي البهلول اشارة لما سبق في المحاكمة الأولى : فان الوزير ابن الفرات كان عزل من الوزارة بتهمة الخيانة الكبرى التي اتهمه بها خصمه الوزير (حامد بن العباس) وكاد يحكم عليه لولا أن القاضي البهلول دافع عنه بحضور الخليفة المقتدر واثبت براءته كما مر مفصلا في المحاكمة الاولى .

ولما ذكر القاضي البهلول الوزير ابن الفرات بما كان جرى له وان القاضي كما قال الحق يومئذ يقوله اليوم ـــ خجل وعلم ان قاضينا البهلول ، من القضاة الفحول ، الذين لا يحيدون عن امر الله والرسول . لكن الوزير (ابن الفراث) اراد ان يشفي قلبه من خصمه (علي بن عيسى) ولو بكلمة جارحة فالتفت اليه وقال :

ـــ آه يا قرمطي !!!

فاجابه (علي بن عيسى) :

ـــ نعم أنا القرمطي .

وجعل يهز رأسه هزة يشير بها الى ان ابن الفرات هو القرمطي حقا .

وربما كان الواقع ما قاله (علي بن عيسى) : فان متصفح كتب التاريخ يجد أن (ابن الفرات) كان على صلة حسنة بالقرامطة . فهو مع خصمه (علي ابن عيسى) على حد المثل « رمتني بدائها وانسلت » .

❀ ❀ ❀

ابن خلدون في المدرسة العادلية « ١ »

— ١ —

ايها السادة مثلما تسارعون كل يوم وخاصة يوم الجمعة الى هذه المدرسة العادلية لاجل المطالعة في غرفتها واستماع المحاضرات في ردهتها كذلك كان اجدادكم من اهل دمشق قديما :

فقد كانوا في القرن الثامن للهجرة ينسلون اليها من كل ناحية لأجل تلقي العلوم المختلفة عن شيوخها وكبار اساتذتها :

ولم تكن هذه المدرسة خاصة باهل دمشق يومئذ بــل كانت كالأزهر المصري : يفد اليها شيوخ غرباء . ومجاورون غرباء . فينزلون عـلى الرحب والسعة في غرفها ومقاصرهـا ويظلون السنين ذوات العدد يفيدون ويستفيدون .

وكان للمغاربة حظ من خدمة العلم في هذه المدرسة : واشهرهم في ذلك (ابن مالك) المغربي النحوي صاحب الألفية المشهور في النحو . فانه جاور في هذه المدرسة اواسط القرن السابع للهجرة . وبعد مئة سنة ونيف (اي في سنة ٨٠٣ للهجرة) نزلها مغربي آخر هو (عبد الرحمن بن خلدون) المؤرخ والفيلسوف المشهور .

---

(١) المدرسة العـادلية هي اليوم مقر المجمع العلمي العربي حيث القيته في ردهته هذه المحاضرة

لكن لم يكن وفود المغربي الثاني (ابن خلدون) على دمشق ونزوله في العادلية لأجل المجاورة ونشر العلم بين الطلبة كما كان شأن المغربي الاول (ابن مالك) ، وانما جيئته اليها كانت أثراً من آثار ولوعه بالسياسات . وحرصه على الرئاسات :

وذلك ان الملك (الناصر فرج) سلطان مصر لما بلغه زحف تيمورلنك على بلاد الشام أسرع بعسكر لجب من المصريين لحمايتها والذود عنها .

وقد نصبت سرادقاته السلطانية في خارج سور دمشق في قبة يلبغا (حيث جامع يلبغا أو البغا كما يسمونه اليوم) وذلك في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ﻫ (١٤٠٠) م

ثم ما تم ان جاء المغولى بجيشه المختلط بعد ان اكتسح ما وراءه من مدن الشام والحق بها الاوصاب والالام

فنزل دمشق وضرب سرادقه على جبل قاسيون في قبة السيار . وهي القبة التي تشاهدونها ايها السادة كلما ذهبتم الى النزهة في حي المهاجرين : فكان تيمور يشرف من قبة السيار على قبة يلبغا حيث خيم سلطان مصر ويراقب حركاته وسكناته .

وحصل بين الجيشين وقائع كانت الحرب فيها سجالا .

وقتل من جيش تيمور في بعض هذه الوقعات نحو الفي نفس .

ثم لما رأى تيمور مناعة دمشق واستبسال الدمشقيين والمصريين في الدفاع عنها لجاء الى الحيلة :

فارسل ابن اخت له ذا دهاء ومكر الى الدمشقين وامره بان يتظاهر بالسخط

عليه (اي على تيمورنفسه) وإنه يريد الانتقام منه .

ففرح القوم به وامل السلطان (فرج) . بالفوز وقرب الفرج .

وجعل تيمور يخيل الى اعدائه انه مرتبك في أمره . وان جيشه صائر الى التقهقر والانهزام . ولم يكتف بهذا بل ارسل من قبله رسولا يفاوض سلطان مصر بالصلح .

فلم يشكّ السلطان حينئذ ان الغلبة ستكون له . وانه لم يبق ثمة خوف على دمشق وسكانها .

واتفق ان جاءته اخبار مصر بحدوث فتنة فيها وان هناك من يحاول خلعه من السلطنة واقامة غيره مقامه .

فتسلل فاراً الى مصر وترك الى بعض قواده حماية دمشق . لابل إتمام الصلح مع تيمور حسبما توهم .

وسفره من دمشق على هذه الصورة يشبه سفر نابليون بونابارت من مصر الى فرنسا مذ بلغه حدوث ثورة عسكرية فيها ضده. فاسرع اليها ،وأناب عنه في حماية مصر جنراله العظيم كليبر .

وكان سلطان مصر حينما جاء دمشق اصطحب جماعة من كبار العلماء ومشايخ الصوفية للمباهاة بهم . أو لنيل الفوز والظفر ببركاتهم .

وكان بين هؤلاء العلماء (ابن خلدون) نزيل مصر وقاضي قضاة المالكية فيها .

فلما هرب السلطان (فرج) الى مصر بقي ابن خلدون في دمشق وأقام فيهذه المدرسة (العادلية) التي نحن مجتمعون فيها الان .

اما تيمور فبعد ان رحل سلطان مصر عن الشام وتمهدت بين يديه أسباب الفوز على هذه الصورة أخذ يشدد الحصار على دمشق . و يضيق الخناق على أهاليها . و كانوا قد انحلت عزائمهم . ودب الفشل الى نفوسهم بعد أن رأوا سلطانهم فرّ وتركهم .

ثم تنازعوا أمرهم بينهم : هل يستسلمون الى تيمور ؟ أو يظلون على مقاومته ؟

أما نائب السلطان الذي يدافع عن قلعة دمشق فقد أرسل الى الاهالي يلومهم على التفكير في أمر التسليم و ينذرهم سؤ العاقبة ان هم سلموا .

ولكن السلطة الحقيقية كانت قد خرجت من يده واصبح الحل والعقد في يد علماء دمشق وأعيانها . ومعظم هؤلاء كان يجنح الى مسالمة تيمور . و يفكر في طريقة يتوصل بها الى مفاوضته في امر الصلح .

✲ ✲ ✲

ففي خلال تلك المدة كان الذعر مستولياً على سكان دمشق . والحرب الاهلية منتظرة من آن الى آخر . وكان طلاب العلم يلجأون الى هذه المدرسة العادلية للبيتوتة فيها : أمناً على انفسهم من جهة . وليسترقوا أخبار المفاوضات مع تيمور من جهة ثانية : لأن (العادلية) كانت في ذلك الحين أشبه بالمقر السياسي لولاة الأمور من علماء دمشق واعيانها ، وخاصة بعد أن نزلها ابن خلدون الذي جعلته شهرته في السياسة والتاريخ

وعلم العمران موضع ثقه الناس أجمعين .

٭ ٭ ٭

ففي الليلة السابعة من شهر جمادى الثانية وهي ليلة عصفت ريحها . واشتد زمهريرها . حتى كأنها الليلة التي عناها شاعر العرب بقوله :

(في ليلة من جمادى ذات اندية لا يبصر المرء في ارجائها الطنبا)

(لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا)

في هذه الليلة كان الظلام الحالك مستوليا على المدرسة العادلية . والسكون مخيما في ارجائها . وكان بابها الكبير مغلقا لا يفتح رتاجه لأحد الا بأذن من كبير خدمة المدرسة. فكان الداخل اليها يدخل من خوخة الباب [1] الى صحنها الواسع فلا يسمع حساً الا حفيف ورق الاشجار المغروسة في نواحيها . وخرير المياه التي تنساب في فساقيها. ولا يلمح ضوء سوى أشعة ضئيلة كانت تتراءى من نوافذ غرف الطلبة المجاورين .

ندنو من احدى هذه الغرف فنرى فيها نفراً من الطلاب مختلفي الأزياء والسحنات . وهم جلوس على الحشايا وجلود الغنم حول كانون يستدفئون بناره وعلى مقربة منهم كرسي من خشب يعلوه مصباح يرسل اشعته الضئيلة على كراريس علم في ايديهم . فكانوا تارة ينظرون في الكراريس . وطوراً يلقونها من أيديهم ضجرين متململين و يعودون الى الحديث عن الاحوال الحاضرة

---

(١) الخوخة الباب الصغير في الباب الكبير

المقلقة .

وكيف لا يقلقون وتيمور وجنوده الغلاظ الاكباد يهددون دمشق الحسناء بالشر والبلاء . وكانوا احيانا يصيخون الى صرير باب المدرسة كلما فتح وأغلق متسائلين هل جاء ؟

ومن هو يا ترى ذاك الذي ينتظرون مجيئه ؟ ؟

انتصف الليل و إذا صرير الباب . و إذا خفق نعال و إذا الاعناق مدت والاذان أرهفت . واذا رجل دخل عليهم فهبوا جميعاً للقائه وبادر احدهم فنزع عن القادم ممطرة [1] وعلقه على مشجب [1] في الجدار .

و كان هذا القادم يسمى (ابن الزملكاني) [2] وهو من نوابغ طلبة العلم في دمشق . وكانت آمارات الارتياح والطمأنية ظاهرة على وجهه .

اقترب الرجل من الكانون . وجعل يصطلي . و يقلب كفيه على النار .

و بعد هنيهة سأله الطلبة بصوت خافت :

ــ وماذا تم ؟ هل وصل القوم الى معسكر تيمور ؟

ــ نعم وصلوا بحمد الله .

ــ وكيف فعلوا ؟ هل خرجوا من باب النصر [3] او تدلوا من على السور ؟

ــ بل تدلوا من السور بحبال ضخمة . و كان خوفي شديداً على استاذي

---

(١) الممطر هو ما نسميه اليوم (مشمعاً) يتقى به المطر والمشجب هو ما نسميه اليوم تعليقة الثياب

(٢) نسبة الى (زملكا) وهي احدى قرى غوطة دمشق (٣) كان موقعه على مقربة من دار المشيرية اليوم

عبد الرحمن بن خلدون : فان برنسه الفضفاض الذي يلبسه كان يحول دون إحكام شد الحبل عليه .

ـــ ومن كان مع استاذك ابن خلدون من القضاة والاعيان غير القاضي (تقي الدين بن مفلح الحنبلي) ؟

ـــ كان معه القاضي (محي الدين بن العز) وولده (شهاب الدين) و(شمس الدين الحنبلي) و (ناصر الدين بن ابي الطيب) و (احمد بن الشهيد الوزير) و (القاضي الجياني) و(نائب الحكم ابن لقوشة) .

فتنفس الطلاب الصعداء . وانكشف عن نفوسهم ما كان يخامرها من كرب وقلق .

ثم اشتد الجدال بينهم بشأن هؤلاء النفر من أعيان دمشق الذين ذهبوا سفراً في الصلح ، وأيهم الذي يحسن السفارة . ويطيق القيام بهذه المهمة مع ذلك الجبار العاتي .

لكنهم اتفقوا أخيراً على تقديم ابن خلدون . ويأتي بعده في المرتبة تقي الدين ابن مفلح : فأنه يعرف اللغة الفارسية واللغة التركية ، لغة تيمور .

ثم قال احد الطلبة : ولماذا يا ترى تدلوا من فوق السور ولم يخرجوا من باب النصر ؟

فأجابه آخر :

إن الصلح مع تيمور كان على غير رضا الحامية المصرية . حتى ان نائب قلعة دمشق أبى أن يفتح لهم باب النصر . وقال لهم : إن خرجتم الى تيمور أحرقت البلد جميعها .

ثم رجع الطلبة الى الحديث عن سفراء الصلح. وكان معظم حديثهم يدور حول (ابن خلدون) الذي تولى رئاسة الوفد.

فوجه أحد الطلبة سؤالا الى (ابن الزملكاني) قائلا:

كيف تفوق استاذك ابن خلدون على أقرانه؟ ونبغ هذا النبوغ في العلوم الاسلامية وفي علوم الفلسفة والعمران والسياسة؟ فأجابه قائلا:

ان استاذي (ولي الدين بن خلدون) ثمرة يانعة من ثمرات الحضارة الاسلامية التي بلغت حدها من النضج والتكامل في عصره.

فقد قامت الدول الاسلامية ذات المدنية والعمران في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة. ثم انقرضت وتركت وراءها من آثار مدنيتها مصنفات في شتى العلوم. كما تركت أبنية ماثلة للعيان. شاهدة على تفوق تلك المدنية. فاستفاد ابن خلدون في سياحاته الطويلة من درس هذه المخلفات الموروثة بعد أن تأمل فيها بعين بصيرة نقادة.

هذا درس استفاد منه ابن خلدون.

وهناك أيها السادة درس آخر استفاد منه ايضا. ولكنه ويا للأسف درس مخجل مخزي.

وموضوع هذا الدرس هو الدول الاسلامية المنتشرة في ذلك الحين في شرق العالم الاسلامي وغربه ما بين دول عربية مغلوبة، ودول أعجمية غالبة. وقد استولى عليها التحاقد والتحاسد وقام التشاد والتنازع بينها على

قدم وساق.

درس استاذي ابن خلدون هذا الموضوع الثاني درسا عمليـــا مباشراً: فوقف من كثب على اسباب عظمة تلك الدول ثم اسباب تدنيها وانخزالهـا أمام مهاجميها.

فأفاده هذا الدرس العملي كما افاده ذلك الدرس النظري حذقا وبصيرة؛ وتفقها في علوم العمران. وفهم حقائق هذا الوجود. واسرار عظمة الامم. وعوامل نهوضها وسقوطها.

عدا ان استاذي ورث عن آبائه الاستعداد الكافي لهـذه الدروس. فقد مارس آباؤه الاعمال السياسية ثم تـولوا اخيراً الخطط الدينية خلال بضعة قرون.

— ومن اين اصل اسرة استاذك؟

— أصل اسرته من عرب حضرموت توطنوا الاندلس بعد فتحهـا فكان أجداده الأولون يتولون المناصب (السياسية) في اشبيلية.

ولما تزعزع مركز العرب في تلك الربوع انتقلت الأسرة الخلدونية الى تونس في أفريقية وتولت مناصب سياسية ايضا وكانت هجرتهم هـــذه في خلال القرن السابع للهجرة. حتى قام والده محمد فاشتغل بالعلوم الدينية وتقلد مناصبها. وولد له استاذي ولي الدين في رمضان سنة (٧٣٢ هـ ١٣٣٢م) فنشأ عاكفا عـــلى تحصيل العلوم المعروفة بينهم كما ينشأ أبناء علماء ذلك الزمان.

وا ول عمل تقلده وهو في سن العشرين كتابة العلامة السلطانية ونصها (الحمد لله والشكر له) تكتب بقلم غليظ على طرز [1] خاص . فباشر هذا العمل على كره واشمئزاز منه .

ثم تحول من تونس الى بجاية[2] بطلب من صاحبها الامير محمد . فلم يلبث ان طار صيته في اصقاع المغرب . فاستدعاه سلطان فارس (ابو عنان المريني) وولاه الكتابة والتوقيع بين يديه وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة .

قال ابن خلدون : (فتحملت هذا العمل على كرمني اذ كنت لم اعهد مثلة لسلفي) يعني أن سلفه انما كانوا يتقلدون مناصب الحكم والامارة لا أعمال الكتابة والتوقيع

طموح نفس استاذى الى المعالي على هذا الشكل الحاد جعل ملوك المغرب وامراءه يرتابون فيه ويحذرون نزواته . ويرقبون حركاته وسكناته كما جعل لداته وعشراءه من عشاق المناصب والمرشحين يغارون منه ويحقدون عليه :

فمن بين ارتياب اولئك الامراء ، ومنافسة هؤلاء الاتراب والعشراء نشات جميع متاعب ابن خلدون وراجت المطاعن في اخلاقه ونسبة الدخل الى سلامة صدره . وكان ارتياب الملوك والامراء فيه يمهد السبيل امام وشاية الواشين . وكيد القلاعين [3]

---

(١) وهذا كما تكتب الطغراء في مراسيم آل عثمان

(٢) هي بلدة في الجزائر على ساحل البحر

(٣) القلاع في اللغة العربية هو الذي يرى ذا منصب أو مكانة لدى الامراء والحكام فيسعى في قلعه من مكانة . والحلول محله فيها

فسعوا لدى سلطان فاس (أبو عنان) بابن خلدون وقالوا انه يدّبر مؤآمرة عليه مع صديقه أمير بجاية. فنكبه السلطان وسجنه فقاسى في السجن محنة وبلاء.

ثم مات السلطان (أبو عنان) وخلفه (ابو سالم) فأطلق ابن خلدون من سجنه وولاه رئاسة الانشاء. وحينئذ ظهرت كفاية، وذاعت في الاقطار شهرته. ولا سيما مذ سلك في الكتابة طريقته المرسلة المعهودة في مقدّمة تاريخه. وكان يغلب على كتاب ذلك الزمن التسجيع، ومراعاة انواع البديع.

كان ملوك المغرب لا يرون في ابن خلدون الا أنه يصلح للمناصب الدينية وللكتابة في دواوين الانشاء. وكان هو على العكس يرى في نفسه الكفاية لمناصب الحكم والامارة. وتولىّ أعمال السياسة والادارة. فكان موقفه إزاء الملوك والأمراء موقف شد وجذب. ومماطلة وعتب.

وحاله هذا يذكرنا بحالة شاعرنا المتنبيء: فقد كان سيف الدولة وكافور الاخشيدي يريان فيه شاعراً حكيما. وهو يريد منهما ان يرياه اميراً عظيما. حتى قال احد بطانة كافور يوماً لكافور: ما ضرك لو قلدت ابا الطيب عملا وارحت نفسك من الحاحه؟ فأجابه بهذا الجواب الحازم: ياقوم رجل تجرأ على الله فادّعى النبوة افلا يجترىء علي ويدعي الخلافة؟

ثم مل ابن خلدون الاقامة في فاس على غير جدوى فتحول الى الاندلس. ونزل على ملك غرناطة من بني الاحمر. فأكرم الملك ووزيره (لسان الدين ابن الخطيب المشهور) مثواه واحسنا وفادته. وتوثقت بين

الوزير لسان الدين وبين ابن خلدون اواصر الحب والصداقة. ولا عجب فقد كانا كلاهما كوكبي ذلك العصر، في استجماع آلات الرئاسة ولا سيما صناعتي النظم والنثر.

وكانت الاندلس لحين وفود ابن خلدون عليها في دور الانحطاط بل قل في دور النزع والاحتضار. وكان النزاع شديداً بين ملك غرناطه (محمد الخامس) من بني الاحمر وبين (بيترو) ملك قشتاله. فارسل ملك غرناطة (ابن خلدون) لمفاوضة (بيترو) في فض بعض المشاكل القائمة بينهما. فجاء ابن خلدون اشبيلية وهي موطن اسرته القديم كما ذكرناه. وكان لدى ملك قشتاله طبيب يهودي يعرف من امر ابن خلدون وفضله وتاريخ اسرته ما لا يعرفه اهل اسبانيا. فكان ذلك مما حمل الملك الاسباني على الاحتفاء بابن خلدون. حتى كلفه ان يبقى عنده في اشبيلية وهو يرد اليه ما كان لابائه من ملك وعقار. فأبى ذلك ابن خلدون. وعرف ان هذا الملك العدو لم يرد في اكرامه اكرام العلم والأدب. وانما اراد تمزيق وحدة العرب.

ولما اتم ابن خلدون مهمته السياسية لدى ملك قشتاله واراد الرجوع الى غرناطة اهدى اليه (بترو) بغلة فارهة بلجام ذهب. فلما وصل واخبر الملك بما اتفق عليه مع ملك قشتاله سر واجزل صلته وأهدى ابن خلدون الى الملك البغلة ذات اللجام الذهبي التي اهداها اليه ملك قشتاله فأقطعه الملك عوضاً عنها بلداً [1].

---

(1) يراد بالبلد في اصل اللغة العربية مطلق ارض عامرة او غامرة ذات سكان او خالية من السكان. واطلاقها على المدينة المبنية ذات السكان عرف طارىء مولد. فالبلد التي اهداها ملك قشتاله الى ابن خلدون هي اذن ارض زراعية للاستغلال فعرب الاندلس اذا كانوا يسمون الزراعة (بلداً) فان اهل دمشق يسمونها (حاتوتاً) واهل مصر عزبة والاتراك جفتلك.

ثم ان الشنشنة الملعونة التي كادت تكون علامة فارقة تميز العرب عن غيرهم واعنى بها تحاسدهم على الرئاسة، الى حد تقطيع أوصالهم واتلاف نفوسهم — هذه الشنشنة عملت عملها في التفرقة بين ابن خلدون وصديقه وزير الاندلس لسان الدين بن الخطيب فقد وشوا بابن خلدون الى هذا الوزير قائلين له: إن ابن خلدون انما ينظم القصائد في مدح الملك لأجل زحزحتك عن دست الوزارة والحلول محلك. وما أسرع تأثير أمثال هذه الوشايات في نفوس المستعدين لها.

ويظهر ان الوزير لسان الدين كان على جلالة قدره، وحصانة عقله مستعداً لقبول هذه الوشاية الدنيئة فتغير على ابن خلدون. فشعر هذا بالامر فاستأذن الملك في الرحيل الى بلاده فلم يأذن له الملك فألح عليه فأذن له اخيراً آسفاً على فراقه.

كان ابن الزملكاني يحدث طلبة العادلية بحديث استاذه ابن خلدون وبمناقبه الغر واذا هو يرى في وجه بعضهم أمارات الارتياب والشك في صحة ما يوردهمن سلامة أخلاق استاذه. فبقي مسلسلاحديثه ثم قال:

ويريد قوم أن يعيبوا استاذي بقلة الوفاء ويزعمون انه كان يدس الدسائس. ويبذر بذور الفتن في كل ارض حلها للاصطياد واحتجان المنافع. ولو أدى ذلك الى الاخلال بمنافع ـ لانه وبمصالح الملوك الذين إئتمنوه على اسرارهم.

فقاطعه احد الطلبة قائلا: ولكن لماذا نرى استاذك لا يستقيم على حال. ولا يستقر في مكان. بل يتلون بما استطاع من الألوان. في معاملة

الرؤساء والاخوان ؟

فاحتدم ابن الزملكاني غيظا وقال : هذا كذب وافتراء على استاذي وان عقله وحكمته ودينه ليربأ به ان يكون من ضعف الاخلاق على ما وصفه خصومه .

نعم إن استاذي يطمح الى المعالي وتسنم الرئاسات . ولكنه كان يسعى اليها بما اوتي من ذكاء وعلم ومن طريق النصح والامانة . لا من طريق الغدر والخيانة . فان هذا لا دليل عليه سوى ما يختلقه خصومه وينسبونه اليه :

كان ابن خلدون لا يفد على امير ما لم يكن الامير نفسه هو الطالب لوفادته . الحريص على الاجتماع والاستضاءة هو وقومه بنوره حتى اذا عاشر ابن خلدون القوم . وعجم عودهم . واستخرج دفائنهم . وجدهم دونه في الذكاء والفضل والاضطلاع بعلوم السياسة وتوفر آلات الرئاسة . فهو ان لم يطلب المناصب بلسان مقاله . فقد كان يطلبها بلسان حاله . وهذا بالطبع يؤدي الى منافسة اقرانه له . فيجتهدون في الوشاية به والحط من منزلته لدى الملوك . كي يقصوه عنهم ويستأثروا هم بالمناصب والرتب

ثم اخرج ابن الزملكاني من جيبه دفترا صغيراً وقال للقوم اسمعوا ماذا كتب استاذي ابن خلدون الى صديقه وزير الاندلس لسان الدين ابن الخطيب متنصلا مما اتهم به من قلة الوفاء قال :

(فلا تظنوا بي الظنون . ولا تصدقوا التوهمات . فأنا من قد علمتم صداقة . وسذاجة. واتفاق ظاهر وباطن . أثبت الناس عهداً . وأحفظهم

غيبا . واعرفهم بو زان الاخوان ومزايا الفضلاء ؟)

فقاطعه الطلبة قائلين إنك مهما برأت استاذك من تهمة قلة الوفاء . لا تقدر ان تبرأه من وصمة الكبر والخيلاء . فقد كتب في ترجمته نفسه يصف دخوله غرناطة واحتفاء أهلها به فقال :

(وتهافت العلماء وأهل البلد على من كل صوب يمسحون أعكافي . ويقبلون يدي وكان يوماً مشهوداً) فقال ابن الزملكاني : ليس في هذا القول ما يدل على الكبر والعجب وانما الرجل يصف واقعة حال . شأن المؤرخ الأمين . على ان في ذكره لاحتفاء أهل غرناطة بـه إظهاراً للنعمة وشكراً لله عليها .

فقال له الطلبة دعنا الان من هذا وعد بنا الى تتمة اخبار استاذك وما جرى له في بلاد المغرب بعد ان رجع من الاندلس فقال :

جاء استاذي الجزائر بدعوة من سلطانها . ولم يسلم هناك ايضاً من المتاعب التي سببها له حسد منافسيه . ووشاية خصومه . فبقي نحو عشر سنين يتنقل بين حكومات الجزائر وفاس وغرناطة . وكان كلما هم بالتفرغ للعلم . والعكوف على التصنيف . جاءته دعوة من هذا الملك أو ذاك الوزير يستقدمونه اليهم لتقليده الاعمال والمناصب . وإذ كان الرجل سليم الصدر سهل الانخداع . كان يقدم عليهم . فيعود رجال البلاط الى منافسته والوشاية عليه : فاما أن يسجن وإما أن ينفى من الارض. عندها يحنق على السياسة . ويمل مراودة الرئاسة . ويقبل على التعليم والتصنيف . فيحال بينه وبين ذلك . حتى تيسر له اخيراً ما أراد . فتسلل هرباً من سفارة سياسية كلفه إياها

(ابو حمو) ملك تلمسان والتجا الى اولاد عريف في الصحراء . فانزلوه بقلعة أولاد سلامة . فأقام فيها أربع سنوات عاكفاً على تأليف تاريخه الكبير ، وكتب مقدمته المشهورة في خلال تلك المدة .

وهذه المقدمة هي التي أطارت ذكره في الشرق والغرب . ورفعت منزلته في عيون الامم جميعها : عربها وعجمها .

والمقدمة أيها السادة ليست في فن واحد بل هي أشبه بدائرة معارف لطيفة في حجمها غزيرة في مادتها ، مبتكرة في اسلوبها . فقد تضمنت فنونا مختلفة مما يسميه أهل هذا العصر (علم الاجتماع) و (علم السياسة) و (علم الاقتصاد السياسي) و (فلسفة التاريخ) و (تاريخ الآداب العربية) و (هندسة بناء المدن) وغير ذلك مما انتظمه البحث في تلك المقدمة التي ابتكرها عقل ذلك العربي الحضرمي . بل إن في المقدمة من المباحث المتعلقة بتطور الكائنات ما يشبه من بعض الوجوه مباحث العلم الحديث المسمى بالنشوء والارتقاء .

نرجع الى حديث ابن الزمكانى مع طلبة العادلية قال :

لكن ابن خلدون بعد اشتغال اربع سنين في وضع تاريخه وهو معتزل في (قلعة اولاد سلامه) — رأى نفسه محتاجا الى مصنفات يقتبس منها لتاريخه مادة علمية جديدة ، وهذه المادة العلمية انما توجد في دور الكتب الكبرى التي تكون في الحواضر كتونس مثلا . فترك ابن خلدون (قلعة اولاد سلامه) وأم تونس . حتى اذا نزلها لم ينشب أن عاد الى التمرس بالسياسة والتطلع الى الرياسة . فاما ان يكون هو اشتاق الى المناصب فسعى اليها . او

تكون هي راودته عن نفسه فخضع واستكان لديها .

لانعلم كيف كان الأمر وانما نعلم أن الوشاة وشوا الى سلطان تونس ، وبنوا وشايتهم على أن ابن خلدون لا يتنزل لمدح الملك بقصائده كما مدح غيره من الملوك ، فانخدع الملك . ولم يفكر في ان ابن خلدون بلغ من جلال السن ووقار العلم حداً لا يصلح معه نظم الشعر ولا التملق به الى جبابرة الملوك — وفي آخر الأمر رأى ابن خلدون نفسه مضطراً الى نظم قصيدة في مدح الملك فنظمها ورفعها اليه وجعل لها مناسبة ، وهي إهداء الاجزاء التي تمت من تاريخه الى الملك ، ولكن هل أفادت القصيدة ابن خلدون شيئاً او دفعت عنه أذى الوشايات ؟ كلا !

عندها ضاق صدر الرجل وعزم على الرحلة الى بلاد المشرق بحجة اداء فريضة الحج ، وهبط مصر سنة ٨٧٤ للهجرة وعمره اثنان وخمسون سنة . وكان ذلك في زمن سلطنة الملك الظاهر برقوق ، فاحسن الظاهر وفادته ، وولاه قضاء المالكية . ومهد له سبيل نشر العلم في الجامع الأزهر وغيره من المعاهد .

ثم لم تكن حالة ابن خلدون في مصر بدعا من حالته في تونس وفاس وغرناطه : فقد حامت حوله الوشايات هنا كما كانت تحوم حوله هناك . غير أن برقوق سلطان مصر لم يزعجه بالسجن أو النفي كما فعل غيره. بل احترم غربته . وراعى حق ضيافته ، فاكتفى بتنحيته عن قضاء المالكية وبقي يواصله ببره وانعامه .

وقد قال قوم : إن ابن خلدون أراد ان يدس الدسائس في مصر لاصطياد

المناصب كما كان يفعل في بلاد المغرب لكنه لم ينجح. لأن عمران مصر كان قائماً على دعائم ثابتة. وقوانين مقررة. وشتان بينه وبين عمران المغرب ودويلاته البربرية التي كانت تسوس رعاياها بالعنف والغلظة. ولذا تنبه رجال مصر الى دسائس ابن خلدون فقضوا عليها في مهدها. وكذا قالوا: ولكن يظهر للمتأمل في مطاوي أخبار ابن خلدون ان عدم نجاحه في مصر كان ناتجاً عن شدته في المعاملة وصرامته في تطبيق احكام الشرع، على الكبير والصغير، بحيث ما كانت تأخذه في الحق لومة لائم، وهي حالة لم يعتدهـــا المصريون اذ ذاك، بل كانت الشفاعات فيهم رائجة. وكلمة الامراء والعظماء ولو بالباطل نافذة.

لا جرم ان الناس في عهد ابن خلدون كانت تغيرت اخلاقهم الدينية عما كانت عليه من قبل: هذا سلطان العلماء العز بن عبد السلام كان قاضياً في دمشق ثم في مصر قبل ابن خلدون بنحو مئة وخمسين سنة وكانت كلمته الدينية نافذة ككلمة باباوات روما في القرون الوسطى.

فقد روى السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) ما ننقله عنه ببعض تصرف قال انه في سنة ٦٣٩ هـ بلغ العز بن عبد السلام قاضي دمشق أن الصالح اسماعيل ملكها استعان بالافرنج واعطاهم في مقابـــل ذلك مدينة صيدا وقلعة الشقيف. فأنكر الشيخ على الملك فعله. وترك الدعاء في الخطبة له. فغضب السلطان منه. فغادر الشيخ دمشق. وهاجر الى مصر. فأرسل السلطان خلفه من يتلطف اليه و يرده من الطريق الى دمشق فلحقه القاصد واستوقفه فقال له الشيخ: — وماذا تريدون؟

ـــ ما نريد منك شيئاً الا ان تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير .
ـــ يا مسكين : ما ارضاه يقبل يدي فضلا عن ان أقبل يده . يـــا قوم انتم في واد وانا في واد . والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به .

ثم وصل الشيخ الى مصر فتلقـــاه ملكها (الصالح نجم الدين ايوب) وا رمه وولاه قضاء مصر فأخذ الشيخ يقيم الحدود ويحافظ على الحقوق بكل شدة وصرامة ومن دون محاباة حتى بلغه أن فخر الدين عـــثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذي كان اليه أمر المملكة) وكان استاذ دار الملك الصالح ـــ بنى على ظهر أحـــد المساجد (طبلخانه) وان الطبول كانت تقرع وتزعج المصلين . فأمر الشيخ (أولا) بهدم الطبلخانة . و (ثانياً) باسقاط الاستادار فخر الدين . و (ثالثاً) بعزل نفسه من القضاء . فلم يبال الاستادار بهـــذا الاسقاط . وظن انه لا يؤثر في مركزه في الخـــارج لكن اتفق أن ارسل الصالح ايوب رسولا الى المستعصم خليفة بغداد برسالة ، فسأله الخليفة هـــل سمعت هذه الرسالة من الملك نفسه ؟ قال : لا بل سمعتها من استاذ داره فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . فقـال الخليفة إذ ذاك إن فخر الدين قد اسقطه قاضي مصر العز بن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته .

فخرج الرسول الى مصر فتحمل الرسالة مشافهة من الملك الصالح نفسه ثم عاد بها الى الخليفة فقبلها . (واسقاط العز بن عبـــد السلام لفخر الدين على هذه الصورة يشبه الحرم الذي يلقيه رؤساء الدين المسيحي على أبنـاء ملتهم) .

ولما ثبت لدى الشيخ عز الدين أن جميع امراء الدولة الاتراك مشريون

بمال بيت المسلمين وان حكم الرق مستصحب عليهم لم يثبت عتقهم ، فهم مملوكون للأمة ، والواجب بيعهم لعدم انتفاع الامة بهم ثم ترد اثمانهم الى بيت المال ، وتنفق في مصالح المسلمين .

فعظم الامر على الامراء وراجعوا الشيخ فلم يرجع عن قوله بل أعلن للملأ انه لا يجوز البيع الصادر من هؤلاء الامراء ولا شراؤهم ولا نكاحهم . فتعطلت المصالح و وقف دولاب الاشغال. و كان من هؤلاء الامراء أمير كبير وهو نائب السلطنة فاشتاط غيظاً وقال كيف ينادى علينا ونباع ونحن ملوك الارض ! ثم استل سيفه وقصد الشيخ في داره وطرق الباب فخرج اليه ابن الشيخ ولما رأى الامير والسيف في يده مسلول ذعر و رجع الى ابيه فأخبره فقال له ابوه لا تخف يا بني فان اباك أحقر من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج الى الباب ، فلم يكد يراه الامير حتى يبست يده وسقط السيف من يده وجعل يرتعد و يبكي و يسأل الشيخ أن يدعو له ثم قال للشيخ :

— يا سيدي أيش تعمل ؟

— أنادي عليكم وأبيعكم .

— وفيم تنفق أثماننا ؟

— في مصالح المسلمين .

— من يقبضها ؟

— انا !!

حينئذ فهم نائب السلطنة (المستحقة رقبته للامة) أن الامر جدّ فرجع أدراجه ثم نودي عليه وعلى رفاقه واحداً بعد واحد . و لم يرض مولانا

القاضي الآن يبيعهم بأثمان غالية (تكريماً لهم) حتى اذا استوفى ثمنهم أنفقه في وجوه الخير .

وبعد هذه الحادثة بأقل من مائة وخمسين سنة كما قلنا جاء ابن خلدون الى مصر وأراد أن يعمل ما عمله سلطان العلماء العز بن عبد السلام من إقامة الحدود والمحافظة على الحقوق ، فلم يتمكن لأن الاخلاق الدينية كانت قد تغيرت والاوضاع الاجتماعية تبدلت ؛ حتى أدى الأمر الى عزله عن القضاء وحينئذ انقطع للعلم والتصنيف .

ثم حدث له وهو في مصر أمر آلمه جداً : ذلك أنه استدعى اليه من تونس زوجته وأولاده وامواله فغرقوا في البحر وكان ذلك من أعظم منغصاته في الحياة .

قال ابن الزمكاني وهو يحدث الطلبة ، ثم مات سلطان مصر (برقوق) وخلف ابنه الناصر فرج الذي جاء دمشق لحمايتها من تيمور ، واحضر معه العلماء والصوفية وفي جملتهم ابن خلدون ضيفكم في هذه المدرسة العادلية ورسولكم الى تيمور بالصلح في هذه الليلة

ثم توقف ابن الزملكان عن اتمام الحديث وقال لرفاقه الطلبة : ها نحن الآن في الثلث الاخير من الليل وقد ران الكرى على الجفون وآنا تعب واهن الجسم وأشعر في نفسي بحاجة الى الراحة والمنام .

فصرخوا كلهم بل نريد أن نعرف تمام أخبار استاذك فحدثنا بها . واشغلنا عن المنام . لعل الوفد يعود من عند تيمور فنسمع منه ماذا جرى له ، وكيف وقع الصلح وما هي الأحاديث التي دارت بين تيمور وابن

خلدون . فقال لهم إن رجال الوفد لامندوحة لهم عن البيتوتة في معسكر تيمور هذه الليلة وربما عادوا الينا غداً في ضحوة النهار . وإذ ذاك نتتبع الاثار ونستقصي الأخبار. فنهضوا وحي بعضهم بعضاً . وانصرفوا الى مضاجعهم .

وهكذا نحن ايها السادة اصبحنا مضطرين إلى مغادرة المدرسة العادليه ثم العودة اليها يوم الجمعة الاتي في الساعة الثالثة بعد الظهر لاستماع تتمة أخبار ابن خلدون . وما ذكرناه اليوم إنما هو مقدمة لما سنذكره في المحاضرة الاتية من أخباره ، التي من اغربها قيامه من قبره وطوافه في العالم الاسلامي ثانية كما طافة منذ خمسة قرون .



ابن خلدون في المدرسة العادلية

— ٣ —

أيها السادة :

كان آخر عهدنا بابن خلدون في المحاضرة الماضية انه تدلىّ ليلا من فوق السور الى معسكر تيمور مع رهط من أعيان دمشق لمفاوضته في أمر الصلح . وكان بصحبته تلميذه ابن الزملكاني فعاد هذا الى المدرسة العادلية بعد هزيع من الليل . فتلقاه رفاقه الطلبة متشوفين الى استماع أخبار الوفد . وقعدوا جميعهم حول كانون النار يستدفئون و يتحدثون عن اولئك الأعيان . وما سيكون منهم . وما يوفقون اليه من شرائط الصلح : وكانوا يلحون في السوآل عن ابن خلدون واستطلاع أحواله . فكان تلميذه ابن الزملكاني يقص عليهم ما يعرف من أمره . ومبتدأ خبره . حتى جاء الثلث الأخير من الليل فران الكرى على عيونهم . وملك النعاس عليهم امرهم . ومع هذا بقوا في انتظار رجوع الوفد . ثم اقنعهم ابن الزملكاني بأن اعضاء الوفد لا يمكن ان يعودوا من معسكر تيمور في الليلة نفسها . وانما هم سيبيتون في المعسكر . و يعودون الى المدرسة العادلية في ضحوة النهار . فنهض الطلاب اذ ذاك من حول النار الى مضاجعهم وتوزعوا في غرفهم .

وهكذا فعلنا نحن في المحاضرة الماضية : فقد غادرنا ردهة المحاضرات هذه على أمل العودة اليها وها نحن أولاء قد عدنا والعود احمد

هبَّ طلاب المدرسة العادلية من مضاجعهم سحرا . واقبلوا ز رافـــات و وحدانا الى محال الطهارة . فتوضأوا ثم صلوا صلاة الصبح وأموا الغرفة التي كانوا يسمر و ن فيها البارحة . واذا احدهم أقبل على إخوانه و بيده كتاب :

ـــ ما هذا ؟

ـــ شرح الالفية : فقد وصلنا في المطالعة البارحة الى قول ابن مالك

(ولا يسوغ الابتدا بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمره)

وأحب أن نتمم هذا البحث . فقال له رفيقه الذي بجانبه وكان حديد المزاج دعنا بالله عليك من ابن مالك . والألفية . والابتداء . والنكرة . والنمرة . فان الأمر أعظم من ذلك وهذا الجبار تيمور يهدد البلد بالشر و النكد . فلنتحدث بما يزيل الكمد . لا بما يوهن الجلد . ولننتظر عودة الوفد لنرى ماذا تم الاتفاق عليه ؟

عندها عادوا الى حديث الوفد و اخبار ابن خلدو ن خاصة : فان الامال كانت معقو دة به ومحومة عليه وكانوا كلما سمعوا من تلميذه (ابن الزملكاني) وصف ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء في السياسة وتدبير امر الملك ـ انتعش أملهم بنجاح الوفد . و وصوله الى صلح شريف مع تيمو ر .

قال ابن الزملكاني : يكفينا فخراً معشر العرب أن واحداً منا و هو ابن خلدو ن كان أول واضع لعلم العمران : فهو الذي جمع شوارده و رفع قواعده . وجعله علما بأصول . ولم يكن بحثه في علم العمران بحثا نظر ياً تقليديا . بل بحثاً عمليا اجتهاديا . اعتمد فيه على اختباراته الخاصة . وانتزع قضاياه ومسائله من تفكيره الشخصي . فهو في علم العمران مجتهد مطلق كالامام

ابي حنيفة في الفقه الاسلامي . أو كأرسطو في علم المنطق

وقد اتفقت كلمة العارفين بابن خلدون على ان عقله ومداركه بلغت الأمد الاقصى في الحصافة والمتانة والتوقد لكنهم عابوه من جهة عاطفته واخلاقه . نعم ايها السادة إن ابن خلدون انسان ومهما توفرت في شخص ما شروط التربية لا بد ان يبقى على ضعف في بعض مناحي اخلاقه . على ان كثيراً مما عابوه به ليس بموضوع للعيب ولا بمظنة للريب. مثال ذلك ان الحافظ ابن حجر عابه بانه كان متكبرا . وان القضاة دخلوا عليه يوماً فلم يقم لهم . وانه فظ غليظ الطبع : فكان يعذر المذنب بالصفع . ويسمي هذا الصفع (زجا) . وعندي ان طعن ابن حجر المصري فيه غير جدير بالقول : لما كان بين الرجلين من المنافسة عدا التباين في المشارب الاخلاقية والمنازع الدينية . احدهما وهو ابن حجر كان مقلدا جامداً عاش طول عمره يفكر بعقل غيره . اما ابن خلدون فقد عاش حراً مستقلا يفكر بعقله الذي وهبه الله اياه ليعمل به لا ليعطله . على ان ما وصفه به ابن حجر ينافيه ما وصفه به لسان الدين بن الخطيب وزير الاندلس فقد قال فيه : (انه كان حسن الخلق . جم الفضائل . ظاهر الحيا) فأين هذا مما وصفه به ابن حجر من سوء الخلق وضعف ملكة الفضائل .

وقال آخر : إن ابن خلدون ترجم نفسه في كتاب خاص ولم يفعل احد قبله . لكن لم يقصد بتدوين ترجمة حياته الا التبجح وتزكية النفس . وهذا من امارات صلفه وزهوه . هذا ما قاله بعضهم وبطلانه ظاهر. وكان الأجدر ان يمدح ابن خلدون لا ان يذم . وذلك لاختراعه طريقة (ترجمة

النفس) بشكل مفكرات او مذكرات على نمط ما يسمى بالافرنسية اليوم mémoire وقد حذا مقاله علماء الغرب في هذه الطريقة التي ابتكرها واحد من العرب

ومما وصموه به انه لا يشعر في نفسه بعلاقة حب لوطنه او رابطة تربطه به : اذ كان كثير التنقل من قطر الى قطر .

وهذا الاعتراض في غير محله : لأن ابن خلدون في جميع اسفاره لم يخرج من بلاد الاسلام . وهي كلها وطن واحد في اعتقاد المسلمين . بل يمكن ان نقول ان امر ابن خلدون على العكس : اليس ان (بترو) ملك قشتاله كلفه الاقامة عنده وهو يرجع اليه ما كان لابائه من ملك وعقار في إشبيليته ووعده بالرزق السني . والعيش الهني . فأبي عليه ابن خلدون ذلك تعلقا بوطنه الاسلامي ؟

وهناك قوم غلوا في نقد ابن خلدون وتنطعوا حتى ظن ان لهم من وراء نقدهم غرضا سيئا : فقد قال احد هولاء ان ابن خلدون في ترجمة نفسه ذكر اساتذته ووصف تبحرهم في العلوم فقال المنتقدون ان هذا زهو وكبر من ابن خلدون لأنه يريد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه هو عالم عظيم ما دام شيوخه في هذه المرتبة من العلم والفضل !! وهذا النقد لا يحتاج الى رد

وقالوا ايضا ان ابن خلدون ذكر في جملة كتب الفقه التي درسها مختصر ابن الحاجب ومختصر ابن الحاجب من كتب اصول الفقه لا من كتب الفقه !!! ولكن المتقدمين من علمائنا ما كانوا يفرقون بين الفقه واصول الفقه في التسمية الى هذا الحد ؟

ولمزوه ايضا بأنه ذكر في ترجمة نفسه انه استظهر جزء من الاغاني ثم ذكر في مقدمته المشهوره انه يستميل الحصول على نسخة من الاغانى يعنون ان هذا تناقص في كلامه. ثم حكموا بأنه لم يعرف من الاغاني الا الاسم. مع ان الرجل قد يكون عني انه لا توجد نسخة كاملة من الاغاني بأجزائها العشرين. إنما هو فقد استظهر جزء واحداً ظفر به من تلك العشرين. او يكون اراد انه استظهر جزء اي قسما من اخبار الاغاني مبعثرة هنا وهناك في كتب الأدب التي طالعها

واتهموه بانه متلون في رأيه ومودته وسياسته: رأى ضعف سلطان تونس وقوة سلطان فاس فهرب من الأول الى الثاني. وهذه تهمة ظاهرة البطلان فان الرجل أراد أن يستفيد من علماء موجودين في فاس لم يكن موجوداً مثلهم في تونس وكان ملك تونس يحول بينه و بين غرضه فهرب و يا حبذا هذا الهرب في طلب العلم ولقاء الشيوخ.

يقولون: وهذه المؤامرات التي كان يدبرها ابن خلدون ضد ملوك المغرب بسائق الحرص على منفعته الشخصية ؟

نقول: وهل كل مؤامرة يدون رائدها النفع الشخصي فرب مؤامرة أنقذت بها الاوطان. فكانت خيراً من نافلة الصلاة وقراءة القرآن

وقالوا: انه مذ كان قاضيا للمالكية في مصر كان شديداً قاسياً لا يقبل شفاعة على خلاف عادة قضاة زمانه: وهذا منه على حد قولهم في المثل (خالف تعرف) !! مع ان ابن خلدون اعتذر عن عدم قبوله الشفاعات بأنه انما حمله على ذلك رضاء الله تعالى:

هكذا كان ابن الزملكاني يحدث رفاقه في المدرسة العادلية عن استاذه ابن خلدون ثم قال لهم ممتعضاً : وإن تعجبوا أيها الاخوان فعجب قول بعض الناس : إن ابن خلدون لما عاد من الحج واجتمع بسلطان مصر قال له (إنه دعا له في البقاع المقدسة) فزعموا أن ابن خلدون إنما أراد بهذا القول أن يخدع السلطان المملوك نفسه بالأوهام . فما معنى الخديعة هنا ؟ والرجل راجع من حج ومن عادة الحجاج أن يقولوا لاصدقائهم الذين يسلمون عليهم إننا دعونا لكم في تلك البقاع الطاهرة .

بل أغرب من ذلك كله زعمهم أن ابن خلدون كان يحب المال أشد من حبه لأولاده . ودليلهم على ذلك أنه قال في ترجمة نفسه مشيراً الى حادثة غرق أولاده وامواله في البحر عند ما دعاهم الى مصر : (قد أصابتني نكبة واحدة فأفقدتني الى الأبد المال والسعادة والبنين) قالوا انه قدم المال على البنين في الذكر . وهذا يدل على أن المال يهمه اكثر من اولاده .

هكذا قالوا وهو تحامل بين . إذ ربما كان لابن خلدون في تقديم ذكر المال على البنين غرض اقتضته البلاغة أو الصناعة اللفظية أو أنه قدم المال اقتداء بالقرآن مذ قال تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وإلا فان محبة الولد فطرة في الحيوان . وابن خلدون من ارقى بني الانسان .

وكان بين الطلاب المستمعين لكلام ابن الزملكاني طالب متشيع خشن الطبع فقطع عليه كلامه وقال : وكأنك نسيت كلمة استاذك في ابن البتول سيدنا الحسين صلوات الله عليه وهي قوله (أنه قتل بسيف جده) فلم تذكرها في جملة خطيئاته . فأجابه ابن الزملكاني بكل طمأنينة : (ان استاذي لم يقل

تلك الكلمة هو. و إنما قالها (القاضي ابو بكر ابن العربي المالكي). فهو راي له ذكره ابن خلدون في بحث و لاية العهد من مقدمته و رده عليه. فصرخ الطلبة كلهم: أحسنت في تبرئة استاذك من وصمة كلمة الحسين. ولكن ما قولك في كلمة أخرى لا شك أنها صدرت عنه؟ قال: وأية كلمة تعنون؟ قالوا: كلمته في العرب مذ زعم أنهم أبعد الناس عن السياسة.

وهل هذه الكلمة الملعونة الا حجة للشعوبية وذريعة الى الزعم بأن على العرب ان يتخلوا عن إدارة الممالك للأعاجم الذين مارسوها و ورثوا ملكتها عن أسلافهم؛ ثم يقولون لهم مالكم وللسياسة دعوها لأربابها واعملوا بقول شاعرهم:

(اني رأيت من المكارم حسبكم   أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا)
(و إذا تنوكرت المكارم مـــرة   في مجلس أنتم بـــه فتقنعوا)

فلما سمع ابن الزملكاني هذه التهمة الموجهة الى استاذه إمتقع وتلجلج ثم قال: ان استاذي لم يرد بالعرب الا قبائلهم البدوية السارحة في جنبات الجزيرة، والتي كانت تحيى حياة جاهلية، تكاد تكون مجردة عن كل نظام وشريعة. وقد مر عليهم قرون متطاولة وهم على تلك الحالة.

أما بعد أن هداهم الله بالاسلام. وتعاليم القرآن. فانهم نهضوا نهضتهم المباركة التي كان من أثرها مدنيات انتشرت من قرطبة الى سمرقند. فاستاذي ابن خلدون إنما اراد ما ذكرت لكم، بدليل قوله في المقدمة (وانما يصيرون «اي القبائل البدوية» الى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية) إلى ان قال: (واعتبر ذلك بدولتهم في الملك فانهم لما شيد لهم الدين

أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطنا وتتابع فيهم الخلفاء — عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم). هذا هو قوله وهو صريح في أنه يعني بالعرب الأعراب البداة لا العرب الذين قاموا بالنهضة الاسلامية. واستضاءوا بنور التعاليم القرآنية.

* * *

ولم يكد ابن الزملكاني يتم كلامه هذا حتى علت الضوضاء والجلبة في جنبات المدرسة العادلية وسمع قائل يقول: جاءوا جاءوا. فهرع الطلاب من كل جانب الى باب المدرسة واذا رجال الوفد وإذا بعضهم دخلوا دار العقيقي[1] أمام المدرسة العادلية والبعض الاخر من رجال الوفد دخلوا المدرسة االعادلية الى صحنها فسأل بعض الطلبة ابن الزملكاني قائلا: واين هو استاذك ابن خلدون: قال هذا هو وأشار اليه: فنظر اليه الطالب فاذا هو (مالكي المذهب والمنظر. أصمعي الرواية والخبر. متعمم بعمامة خفيفة. وهيأة ظريفة وبرنس كهو[2] رفيق الحاشية. يشبه من دامس الليل الناشية) ومعه القاضي

---

(١) وهي التي بنيت فيها المدرسة الظاهرية وحمام العقيقي الموجود الى اليوم.

(٢) قوله (برنس كهو) كذا في كتاب (عجائب المقدور في أخبار تيمور) ص١٠٢ من النسخة المطبوعة في المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ولعل صواب (كهو) قهو بالقاف محرفة عن (قهي) وأصلها (قوهي) وهو ضرب من الثياب أبيض اللون منسوب الى بلاد قوهستان التي كانت تجلب منها تلك الثياب ثم غلب اسم (القوهي) على كل ثوب يشبه الثياب القوهية ولو لم تكن مجلوبة من قوهستان. ولعلهم عادوا فتوسعوا فيها أيضاً بحيث اصبحت تستعمل في مطلق الثياب النفيسة ولو لم تكن بيضاء اللون كما استعملها ابن عربشاه في صفة برنس ابن خلدون فانه لم يكن أبيض اللون وإنما هو اسوده بدليل قوله (يشبه من دامس الليل الناشية) وقوله الناشية يشير الى الاية الكريمة (ان ناشئة الليل هي أشد وطأ. واقوم قيلا)

ابن مفلح والجياني وابن ابي الطيب وابن العز و ولده شهاب الدين . ثم تفرق رجال الوفد في غرف العادلية . وتبع كل واحد منهم من له علاقة به من المريدين والطلاب . وبعد هنيهة انتشرت الأخبار. و كثر التهامس بها هنا وهناك في صحن المدرسة واروقتها و إيواناتها ثم جعل الطلبة يحومون حول المقصورة التي دخلها القاضي محمود بن العز وولده شهاب الدين . وكأن شهاب الدين هذا احد أفراد الشباب الدمشقي (الناهض) الذين يهمهم أمر السياسة ومصير البلاد بعد دخول الفاتح تيمور اليها . فلم يكد يخرج الشاب المذ ور من المقصورة التي كان فيها والده و يتوجه نحو الحوض يريد الوضوء حتى التف حوله طلاب العادلية. واجتذبوه من يده الى الايوان(١) الصغير وطفقوا يسألونه عن مقابلتهم لتيمور وما هي شروط الصلح التي استقر الأمر عليها . فذكر لهم شهاب الدين ان خلاصة ما اصطلحوا عليه هو عقد معاهده بالعفو عن دمشق مقابل غرامة مالية كبيرة توزع على الاهالي بمعرفة مؤتمنين منهم . .

وسأله (ابن الزملكاني) قائلا: وكيف كانت مقابلة استاذي ابن خلدون لتيمور فقال اسمع :

انا لما دخلنا على تيمور وقفنا بين يديه حصة من الزمن وجلين خائفين ثم سمح لنا بالجلوس وهدأ روعنا . وامر لنا بالطعام فكوموا امامنا تلالا من اللحم المسلوق : فبعضنا تعفف فلم يأكل، وبعضنا تشاغل بالحديث عن

---

(١) ولعل هذا الايوان هو موضع غرفة القراءه اليوم

الطعام . وبعضنا (اكل والتهم . وتشجع في هذا الميدان وما انهزم) وكان من جملة الاكلين استاذك عبد الرحمن بن خلدون .

كل ذلك وتيمور يمر نظره علينا هاشاً باشاً مراقباً احوالنا . وسابراً بمسبر عقلة اقوالنا وافعالنا . وكان ابن خلدون يصوب نحو تيمور ايضاً نظره . فاذا نظر تيمور اليه اطرق . واذا اغضى عنه تيمور عاد فنظر اليه وحدق . ولما راى تيمور ان زي ابن خلدون مغاير لزينا قال لنا : ارى ان هذا الرجل — واشار الى ابن خلدون — ليس من بلادكم . فا نفتح حينئذ لابن خلدون مجال الكلام فنادى بصوت جهوري :

« يا مولانا الامير . الحمد لله العلي الكبير . لقد شرفت بحضوري ملوك الانام . وأحييت بتواريخي ما ماتت لهم من الايام . ورأيت من ملوك العرب فلاناً وفلانا . وحضرت كذا وكذا سلطان . وشهدت مشارق الارض ومغاربها . وخالطت في كل بقعة اميرها ونائبها . ولكن لله المنة . إذ امتد بي زماني . ومنّ الله علي بأن احياني . حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة . والمسلك شريعة السلطة على الطريقة . فان كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف . فطعام مولانا الامير يؤكل لذلك ولنيل الشرف »

قال شهاب الدين ابن العز :

فلما سمع تيمور هذا الكلام من استاذك ابن خلدون سر وانشرح واقبل بوجهه عليه يناقله الحديث . وعرف انه مدرهنا . ورئيس وفدنا . فعول في الامر عليه . وجعل يوجه الاسئلة اليه . فسأله عن ملوك العرب واخبارها وايام دولها وآثارها . فقص عليه من ذلك ما خلبه وخبله وحير عقله

وسلبه[1]

ثم انفض طلبة العادلية من حول (شهاب الدين ابن العز) منشرحي الصدور. بما سمعوا من أخبار الوفد مع تيمور . وخاصة ماجرى بينه وبين ابن خلدون . ومما يؤسف له ايها السادة أن تيمور بعد ان انجلى عن دمشق اخذ معه طائفة من اعيان الشام الى سمرقند وكان فيهم (شهاب الدين)ذلك الشاب المحبوب الناهض الذي روى خبر الوفد للطلاب وابوه قاضي القضاة محي الدين ابن العز الذي عذبه تيمور وكواه وسقاه الماء الملح[2] .

وبقيت المدرسة العادلية بعد ذلك اياماً تنتغش[3] بالمترددين اليها من الناس لاستماع الاخبار. ومعرفة ما وقع بين تيمور ورجال الوفد وكان طلبتها يروون للناس من حديث الوفد ما ينقع غلتهم . ويقشع حيرتهم .

من ذلك ما رووه من أن ابن خلدون بقي في ضيافة تيمور خمسة وثلاثين يوماً . وان تيمور كان يعجب بسعة علمه . وغزارة مادته . لا سيما في علمي التاريخ وتقويم البلدان (الجغرافيا) . ومما رواه ابن الزملكاني تلميذ ابن خلدون أن تيمور سأل استاذه عدة أسئلة : من ذلك انه قال له :

— اين بلدك ؟

---

(١) اقول ولا ينبغي أن يعد قول ابن خلدون لتيمور انه يحمد الله على امتداد زمانه حتى رآه مداهنة ونفاقاً فان المسئلة مسألة خلاص ونجاة وبجاحشة عن الحياة . ولم ينس اهل دمشق بعد جمال باشا وما كان من تملق الكثيرين اليه خوف صولته وبطاشه وهم لعمري معذورون في ذلك

(٢) ما مر من اخبار مقابلة اعيان دمشق لتيمور لخصناه من كتاب، (عجائب المقدور) لابن عربشاه

(٣) تنتغش هو بمعنى قول ارباب الجرائد اليوم تعج عجيجاً بالناس . وقولهم هذا ليس من كلام العرب في شيء .

ـــ المغرب الجواني .

ـــ ما معنى الجواني في وصف المغرب ؟

ـــ هو في عرف خطابهم معناه (الداخلي) لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه . فالأقرب الى هنا برقة وأفريقية . والمغرب الأوسط تلمسان و بلاد زناتة . والأقصى فاس ومراكش وهو معني الجواني

ـــ واين مكان (طنجه) من ملك المغرب ؟

ـــ في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق . ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته، لأن هناك نحو العشرين ميلا .

ـــ وسجلماسة أين موقعها ؟

ـــ في الحد بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب .

ـــ لا يقنعني هذا وأحب أن تخطط لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها . وجبالها وأنهارها . وقراها وأمصارها .

يحصل ذلك بسعادتك .

قال ابن الزملكاني : ثم إن استاذي ابن خلدون انصرف من مجلس تيمور وأقام في كسر البيت [1] واشتغل بما طلبه تيمور منه في وصف بلاد المغرب فكتب في أيام قليلة مختصراً وجيزاً وقع في اثنتي عشرة كراسة منصفة القطع . وقدم ذلك اليه . فأخذه تيمور من

---

(١) لعله يريد بالبيت الغرفة التي كان يبيت فيها من هذه المدرسة العادلية لأنه كان مقيما فيها كما مر

يده . وأمر بترجمته الى اللسان المغولي الذي كان تيمور حاذقا به .

ومن الاخبار التي تداولها الطلاب بينهم أن ابن خلدون أراد ان يتقرب الى تيمور بهدية تساعده على النجاة من شره . فهيأ له هدية نفيسة : وهي (مصحف) بديع الخط ثمين التجليد و (نسخة) من قصيدة البردة الشريفة و (سجادة صلاة) و (علبتين) من حلوى مصر . ثم حمل ابن خلدون هديته هذه الى معسكر تيمور ودخل عليه . فحياه وجلس هنيهة . ثم نهض وتقدم من العرش وقدم التحف اليه واحدة واحدة . فسأله تيمور عن الكتابين، فلما علم أن احدهما المصحف تناوله ووضعه فوق رأسه وقبل نسخة البردة الشريفة ثم قام ابن خلدون فذاق الحلوى على مرأى من تيمور طبقاً للرسوم المعتادة . وبعد ذلك أكل تيمور منها ووزع باقيها على من حوله وأقبل على ابن خلدون شاكراً له هديته . وسأله عما اذا كانت له حاجة فقال له ابن خلدون : انه غريب في دمشق بعيد عن أهله . وانه هو ورفاقه المصريين في حاجة الى حمايته . فاسعفه الملك بما اراد .

ثم دخل عليه مرة أخرى . فقال له الملك :

— يظهر أن لك بغلة أصيلة .

— نعم يا مولاي .

— هل تبيعها منى ؟

— ليس ثم بيني وبينك من مساومة . واني أهبها لك .

— كلا وإنما أردت بشرائها أن أثيبك على هديتك .

ثم أهدى ابن خلدون البغلة الى تيمور فقبلها منه . وزاره مرة أخرى

فساله الملك : هل تود العودة الى مصر ؟ فأجابه ان اكبر أمنية لي ان اتبع مولاي . قال بعض من كتب ترجمة ابن خلدون : ولكن الملك لم يرض أن يأخذ ابن خلدون معه وإنما منحه جوازاً بالعودة الى مصر مع رفاقه .

فجعل بعض طلبة العادلية يقول : إن ابن خلدون كبير الطمع ساقط الهمة مذ أراد أن يلتحق ببطانة هذا الطاغية . ويترك وطنه المحبوب .

ولكن حقق بعضهم أن ابن خلدون لم يمكنه إلا أن يظهر الرغبة في اصطحاب تيمور ، ثم تخلص منه بأن قال له : إن لي تاريخاً كبيراً جمعت فيه الوقائع بأسرها . وقد خلفته في مصر وسيظفر به المجنون (يعني به الناصر فرج ملك مصر) . واستأذنه في أن يذهب الى مصر ، فيجيء بأجزاء تاريخه ثم يعود اليه ويصحبه الى بلاده . فأذن له تيمور . وإذ ذاك أسرع ابن خلدون الى مصر أهدى من القطا الكدري . وهكذا نجا من تيمور .

ومما يدل على مقت ابن خلدون لتيمور ما كتبه الى سلطان مراكش وهو قوله :

(ويخطيء اولئك الذين يقولون إن تيمور عالم جدا : فهو رجل وافر الذكاء . مولع بالمجادلة فيما يعلم وفيما لا يعلم)

☆ ☆ ☆

وبعد ايام من رجوع الوفد وعقدهم الصلح مع تيمور أخلف تيمور وعده ونقض عهده وارتكب جنوده المنكرات في دمشق ، بما هو مسطر في التاريخ . ثم لم يرع الناس الا وصول وفد من ملك مصر الى تيمور يعقد معه

الصلح . و بعد ان اتم رجال الوفد مهمتهم وارادوا العودة الى مصر ارسل تيمور معهم الى ابن خلدون مبلغاً من المال مكافأة له على هدية البغلة قالوا فحمد ابن خلدون ربه على أن عوضه ثمنها ونجـــاه من تيمور . وبقي ابن خلدون في القاهرة حتى وافاه حمامه سنة ٨٠٨ هـ و ١٤٠٨ م

* * *

هذا هو ايها السادة حديثنا عن ابن خلدون في العادلية وهو بعض اخباره ونفحة طيبة من نفحات ازهاره . وهناك أخبار ووقائع جمة تكفل ببيانها من ترجم له . او وضع مصنفا خاصا في سيرة حياته . وقد طرق مترجموه مباحث مختلفة في الكلام عليه . ومن امتع تلك المباحث واجدرها بالدرس المقارنة بينه و بين غيره من رجال التاريخ وفلاسفة العلم

من ذلك أنهم قارنوا بينه و بين ارسطو من حيث ان كلا منهما كتب في العمران كتابة متشابهة المناحي . و بعضهم شبهه بأبي العلاء المعرى : فقد كان كل منهما متشائما متبرما بالزمن واهله . ولكن الاستاذ طه حسين انكر هذه المشابهة وذهب الى ان ابن خلدون كان امره على العكس ، فهو اقرب الى التفاؤل والابتهاج والثقة بالظفر .

ومر معنا في القسم الأول من المحاضرة تشبيهه بالمتنبي من حيث التطلع الى الرئاسات والمناصب الكبرى حتى كانت الملوك تحاذرهما . و تدفع في صدورهما عن الوصول الى غرضهما ولسان حال كل منهما يقول :

اهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه واطارد ،

وشبهه بعض شبابنا المتعلمين بمونتسكيو ، وقال انه قرأ كتاب مونتسكيو

الذى سماه (اسباب سقوط الرومانيين ونهوضهم) ثم قرأ مقدمة ابن خلدون فوجدهما قد تواردا في كثير من المباحث الاجتماعية . وموتتسكيو كان بعد ابن خلدون بأكثر من ثلاثة قرون .

وقال آخرون ان ابن خلدون يشبه (ميكيافيللى) السياسي الايطالي الذي الف كتابا سماه (الامير) واودعه من امر قيام الدول والحكومات وسياسة الممالك والطرق المؤدية الى دوامها وثبات امرها ما يشبه من بعض الوجوه آراء ابن خلدون في مقدمته . حتى ان صديقنا العلامة احمد زكي باشا المصري قال ان (ميكيافيللى) عاش بعد ابن خلدون بنحو مائة واربعين سنة ، ورجح انه استرق بعض افكاره وانتحلها لنفسه في كتابه (الامير) . ولكن هناك فرق كبير بين الرجلين . فان الفيلسوف الايطالي (ميكيافيللى) جعل نجاح الدول يتوقف على دوس العدل والانسانية ، على العكس من ابن خلدون فأنه حقق في مقدمته ، ان نجاح الدول متوقف على خلال الخير فقد قال : (ان خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك . لأن المجد له اصل يبنى عليه ، وهو العصبية . وله فرع يتم وجوده به ، وهو خلال الخير) فمذهب ابن خلدون اذن ان المجد ونجاح الحكومات لا تتم الا بالخير وهذا على عكس ما قرره ميكيافيللى في كتابه (الأمير)

وقال آخرون ان ابن خلدون يشبه سبنسر فيلسوف الانكليز الاكبر . وذلك في أن آراءهما متشابهة في علل تكون الجماعات البشرية . ونشؤ النظم الاجتماعية .

أما صديقنا ونزيل دمشق في هذه الايام المستشرق الكبير الاستاذ

(ماسينيون) فقد قارن بين ابن خلدون و(اوغست ںونت)العالم الافرنسي المشهور بفلسفته الوضعية . وقال إن كلا منهما ينبغي أن يعد أباً لموضوعه المختص به : ابن خلدون للعمرّان وفلسفته و (أوغست كونت) للاجتماع الحديث . وكنا نرجى أن يكون فيلسوفنا العربي هو واضع علم الاجتماع الحديث . لكن الاستاذ ماسينيون أبى علينا ذلك وذهب الى أن واضع الاجتماع الحديث هو اوغست كونت

اما ابن خلدون فهو واضع علم العمران . والفرق بين العلمين على ما فهمته من العلامة ماسينيون ان علم الاجتماع الحديث مؤسس على فلسفة (أوغست كونت) الوضعية وهي انما تستمد حقائقها من الكون المادي المحض مباشرة ولا تعول على الوحي ولا الروح ولا العالم غير المادي .

أما ابن خلدون فان فلسفته تستند في بعض مناحيها على الوحي والنبوة والروح وعالم الغيب . فمن ثم لم يكن علم ابن خلدون علما اجتماعياً بالمعنى الحديث ولم يكن هو واضع (علم الاجتماع) وانما هو واضع (علم العمران) و واضع علم الاجتماع هو (اوغست كونت) الافرنسي .

هذه هي خلاصة رأي صديقنا ماسينيون في وجه التماثل ووجه التباين بين الفيلسوفين الفيلسوف العربي والفيلسوف الافرنسي . ويمكننا أن نقول جواباً على ما قاله ماسينيون أن ابن خلدون هو واضع علم الاجتماع ثم قام على أثره مونتسكيو ومكيافللي وسبنسر واوغست كونت فشرحوا هذا العلم و زادوه تمحيصاً وتحقيقاً . وجردوه من مباحث الوحي والروح وجعلوه مادياً محضا وكل هذا لا ينافي ان يكون فيلسوفنا العربي هو واضع هذا العلم .

إذ ما على واضع علم من العلوم أن يستو في ابحاثه و يستقصي جميع مسائله .

* * * * *

سمعتم أيها السادة كيف أعملوا المقارنة بين ابن خلدون و بين رجال التاريخ من زمن أرسطو قبل المسيح بثلاثة قرون الى زمن اوغست كونت المتوفى في اواسط القرن الماضي (١٨٥٧ م)

ولكن ألا يخطر ببالكم أن يكون ابن خلدون مشابهاً لأحد فلاسفتنا الشرقيين المعاصرين ؟ ؟ نعم أيها السادة إن ابن خلدون يشبه ولا ريب فيلسوفا مسلما سياسياً عصرياً : يشبه السيد جمال الدين الافغاني لا من وجه واحد بل من عدة وجوه :

فقد درس كل منهما العلوم الاسلامية ثم امتاز على شيوخ زمانه بمهارته في الحكمة والفلسفة وترغيب المسلمين في دراستها والاستفادة من حقائقها .

كان كل من الرجلين يشتغل بالسياسة و يحرص على الرئاسة . كان كل منهما سليم الصدر سهل الاستمالة طاهر القلب ظاهره و باطنه سواء ، كما كان كل منهما متسرعاً حديد المزاج . فابن خلدون وصفه صديقه و زير الاندلس لسان الدين بن الخطيب بانه بعيد عن التأني . وقال ان هذا الخلق هو سبب نكباته ، و تحامل رجال الدولة عليه .

و بمثل ذلك وصف الشيخ محمد عبده صديقه واستاذه جمال الدين الافغاني فقد كانا معاً في باريز ينشئان جريدة (العروة الوثقى) ويسعيان في تحقيق (التعاون النزيه) مع اقطاب السياسة الأوربية من أجل الوصول الى بعض اماني الشرقيين . لكن كان جمال الدين أحيانا يحتد اثناء المناقشة مع

رجال السياسة كغلادستون مثلا ، و ينتج عن حدته و تسرعه احيانا انهيار ما كانا اسساه وكذلك قال الشيخ محمد عبده في ترجمة السيد جمال الدين مشيراً الى ما قلنا (وطالما هدمت الحدة ما بنته الفطنة)

كان كل من ابن خلدون و جمال الدين يعمل عقله في فهم تعاليم الاسلام مستقلا مجتهداً . لا متابعا مقلدا . و كان كل منهما يعنى في توفير مصالح المسلمين العامة و يحرص على اصلاح الجماعات الاسلامية من طريق التوفيق بين اصول الاسلام الصحيحة و بين قواعد علم الاجتماع التي ظهرت فائدتها في اصلاح شؤون البشر وانتظام احوال الجماعات وان حرصهما على تطبيق فكرتهما هذه في العالم الاسلامي من دون تقية ولا جمجمة وكذا مقاومتها للخرافات و التقاليد الداخلية في الدين — كل ذلك اثار في وجههما الخصوم واوجد لهما الحساد والمنافسين في كل بلد نزلا فيه او بلاط ملكي تقربا منه .

فما أشبه حالة ابن خلدون في بلاط غرناطه وفاس وتونس والقاهرة منذ خمسة قرون . بحالة جمال الدين الافغاني في بلاط كابل وطهران والقاهرة والاستانه في عصرنا الحاضر وان كان الشيخ الافغاني قد ابتلاه الله من الشيوخ الجامدين بالشيخ (عليش) المغربي الذي كان يحمل عكازته ويروغ بها على تلامذة الافغاني وهم يدرسون الفلسفة في احدى زوايا الازهر — فان ابن خلدون ابتلاه الله وهو في تونس بشيخ جامد ايضا وهو (ابن عرفه) الذي كان يحسد ابن خلدون على اعجاب الناس به . واقبال الطلاب على حلقة درسه . حتى روى ابن خلدون ان ابن عرفة هذا كان يسعى به لدى حكام تونس ويغريهم بتغريبه والبطش به .

عرض (بترو) ملك الاسبان على ابن خلدون ان يريح نفسه من العناء ويقيم عنده وهو يغدق عليه من زهرة الحياة الدنيا ما شاء ، فابى . وكذلك السلطان عبدالحميد عرض على جمال الدين ان يريح نفسه من عناء السياسة عامة ومقاومة ناصر الدين شاه ملك العجم خاصة . ثم هو يزوجه إحدى حظايا قصره فابى عليه ذلك وقال لنا جمال الدين مذ اجتمعنا به في الاستانة انه اذا تزوج بعد بلوغه هذا السن كان مستغرباً كما يستغرب من الشيخ عليش ان يذهب مع تلامذته الى الازبكية ويشرب قدحين من البيره .

مات ابن خلدون في دار الغربة بمصر ودفن في مقابر الصوفية في خارج باب النصر ، وقبره غير معروف شأن من يموت غريباً . وهكذا جمال الدين فانه مات غريباً في الاستانة ودفن في تربة (شيخلر مزارلغي) قرب نشان طاش وكاد قبره يندرس لو لم يتداركه (المستر كراين) الاميركي فيبني له ضريحا فخما يناسب شهرته ومنزلته. فمن لنا بكراين آخر يبني لنا ضريح فيلسوفنا العربي ابن خلدون !!

(كان ابن خلدون آخر نجم سطع في سماء التفكير الاسلامي الحر) كما قال عنه كاتب ترجمته العلامة الالماني الاستاذ (فون فنردندونك) . عـــاش ابن خلدون في أشد أزمـــان العالم الاسلامي إظلاماً من الوجهة الاستقلالية والسياسية : فكان كنجم أنار تلك الظلمات ثم أفل .

كان عربياً صميما شديد الغيرة على دينه وملك قومه وقد رأى هـــذا الملك مفككا مضمحلا . استولت عليه الأعاجم من أواسط آسيا الى شمال افريقية، الى غرب أوربا. دويلات مغولية وتركية وبربرية قامت في كل مكان

على انقاض الدول العربية الصريحة. ساح بنفسه في تلك الممالك : من اشبيلية في الغرب الى الحجاز ودمشق في الشرق . رأى بعيني رأسه تيمور المغولي في الشرق يجتاح سوريا كما رأى بعيني رأسه (بترو) الاسباني في الغرب يحرمز ويجمع نفسه للاثوب على غرناطة آخر مملكة عربية في الاندلس .

كان ابن خلدون يرى ذلك فتتقطع نفسه حسرات علــــى ذلك الملك الضائع . والبناء المتقوض .

كان يسيح في العالم الاسلامي فاحصاً منقباً فيدرّس ويكتب ويؤلف ويهز النفوس الجامدة . ويتلتل الهمم الخامدة .كان كلما صرخ لم يجب إلا برجع الصدى . وكلما حذر وأنذر لم يقابل الا بالأعراض والجفا .

انطفأت تلك الشعلة واغمض ابن خلدون عينيه في ذلك الظلام الدامس . وبعد خمسة قرون من موته عاد فعاش ونشر من قبره ممثــــلا في السيد جمال الدين الافغاني

فتح جمال الدين عينيه ورأى رأ بتوأمتيه ، وإدارهما يمنة ويسرة في جنبات العالم الاسلامي . فماذا رأى ؟

رأى ما كان رآه ابن خلدون منذ خمسة قرون . راى الظلام ظلاما . والقوم نياما . راى تيمورلنك المغولي ممثلا في السلطان عبد الحميـــــد . وبترو الاسبانيولي متقمصاً فيكتوريا ملكة الانكليز .

قام جمال الدين من قبر ابن خلدون فكان همه همه . وغرضه من الحياة غرضه : هاتوا حقيبة السفر وعصا السياحة . ساح جمـــــال الدين في العالم الشرقي والغربي : الى مكة ومصر وطهران والاستانة ، إلى بطرسبورج وفينـــا

ولندرة و باريس . راى موتا في جانب . وحياة في جانب . راى اتكالا وقناعة من قوم . وسعياً وطمعاً من آخرين . رأى جهلا و بطالة و كسلا هنـــا وعلما وعملا ونشاطا هناك .

هذا الشيخ (عليش) في مصر و (حسن فهمي) افندي شيخ الاسلام في الاستانة يقاومان جمال الدين كما قاومه (ابن عرفة) في تونس و (القاضي البساطي) في القاهرة منذ خمسة قرون . التاريخ يعيد نفسه .

أيها المنشور من تحت رجام القبور ، عد الى الخطابة والكتابة وارفع الصوت بالحض والانذار ، ومر المسلمين بترك الخلافات ونبذ الأوهـــام والخرافات. هات أسمعنا التوجع والأنين . و آهات (أرميا) الحزين .

(بكائي على السالفين . وتحيي على السابقين . اين انتم يا عصبة الرحمـة . وأولياء الشفقة . أين انتم يا أعـلام المروءة وشوامخ القوة . أين انتم يا آل النجدة . وغوث المضيم يوم الشدة . اين انتم يا خير امـــة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . أين انتم يا أيها الامجاد الأنجاد . القوامون بالقسط . الاخذون بالعدل . الناطقون بالحكمة . المؤسسون لبناء الامة . ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم . ومـا أصاب ابناءكم ومن ينتحل نحلتكم . انحرفوا عن سنتكم . وحادوا عن طريقتكم فضلوا عن سبيلكم . وتفرقوا فرقاً واشياعا حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب اسفاً . وتحترق الاكباد حزنا . اضحوا فريسة للامم الاجنبية

لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم . ولا دفاعا عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم . ينبه الغافل و يوقظ النائم . ويهدي الضال الى سواء السبيل . إن لله وانا اليه راجعون (1))

ولكن هل يئس جمال الدين من يقظة الشرق وسعي الشرقيين في الاصلاح ؟ كلا لم ييأس : فهو وان كان قد رأى شجرة العالم الاسلامي اصبحت اعواداً يابسة . لكنه رأى خلال الاعواد والاشواك و ريقات خضراء . فتهلل وجهه بعد العبوس وانتعشت نفسه بعد القنوط وسائل نفسه قائلا ؟ هل هذه الاوراق الخضر . المتفرقة هنا وهناك من هذه الشجرة اوراق قديمة باقية من الحياة الاولى يا ترى ؟ اوهي اوراق جديدة حييت بحياة جديدة ؟ ؟

اذن في الشجرة اخضرار . في المريض رمق . في الجسم ذماء . فلنجتهد اذن ولنعمل على احياء الشجرة .

عمل جمال الدين واجتهد حتى كل وتعب . ولقي من مر الحياة وحلوها ما لقيه ابن خلدون الاول .

كلا الخلدونيين لم يخلف ولدا . لكن الفرق ان ابن خلدون العربي خلف مقدمته الاجتماعية المشهورة :

---

(١) هذه القطعة المكتوبة بين الهلالين مقتبسه من جريدة العروة الوثقى التي كان ينشئوها السيد جمال الدين

اما ابن خلدون الافغاني فانه لم يخلف كتبا ولا مقدمة . وانمـــا خلف الأمة[1] التي ايقظها فاستيقظت واخذت تخوض عباب الحياة بجد وثبات فهي لا تلبث ان تصل الى ساحل النجاة .



(١) خطب سعد باشا زغلول في ١٩ ايلول سنة ١٩٢٣ عقب عودته من جبل طارق الى مصر فقال : لست خالق هذه النهضة — كما قال بعض خطبائكم — لا اقول ذلك ولا أدعيه بل لا اتصوره : انما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة . وللحركة العربية فضل عظيم فيها . وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني واتباعه وتلاميذه اثـــر كبير . . . كل هذا حق ويجب علينا ان لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق الا الضعيف .

فهرست الكتاب

	صفحة
محمد والمراة	٣
محاكمة وزيرين في امرين خطيرين	٢٣
ابن خلدون في المدرسة العادلية	٣٨




Bibliotheca Alexandrina
0419795